١٣٣

روايات احلام

وداعاً يا حب

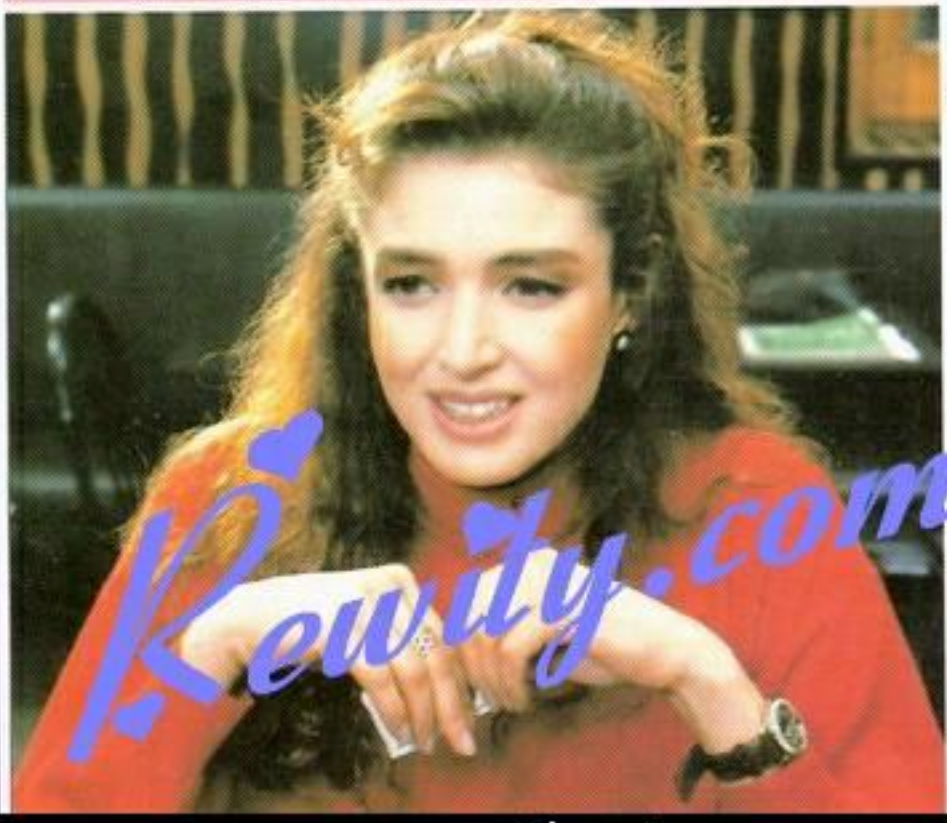

Rewity.com

www.rewayti.net

روايات احلام

وداعاً يا حب

نبحث عن حب فلا تقبض أيدينا إلا على الوهم ...
نهرب من حب فتأتينا صورة الحبيب من حيث لا ندري ...
هل هو قدرنا أن نحصل على ما لا نريد ؟

لم تستطع ليندساي فيربان عارضة الأزياء الناجحة أن تتحمل الإذلال الذي تعرضت له فهربت إلى حيث لن يجدها أحد ، وكانت على ثقة أن أحداً لن يتعرف إليها فقد غيّرت مظهرها كلياً وعادت فتاة ريفية بسيطة يخلو بالها من كل هم ...

ولكن من هربت منه غزا عالمها بدون سابق إنذار ...
فهل يستطيع دونفان راسمسون أن يجد رابطاً بين العارضة والفتاة الريفية ؟ وهل تستطيع ليندساي الصمود في لعبة التخفي أم تراها ستتجرع كأس الاذلال ذاتها التي ذاقتها على يده من قبل ؟

لبنان ٢٠٠٠ ل . ل	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل. س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

www.rewayti.net

١ ـ كذبة كبيرة

لم تكن ليندساي ڤيربان كمعظم عارضات الأزياء ذات جمال كلاسيكي. ما كانت تملكه لتأمين نجاحها بشرة ممتازة وعينين مثيرتين لونهما ما بين الأزرق والأخضر، وجسد يزيد جمال أي ثوب ترتديه. لذا كان مصممو الأزياء يطلبونها دائماً، والمصورون يعرفون أن كل صورة تؤخذ لها يعني الاستفادة منها.

سألت ليندساي إحدى أخلص صديقاتها:

ـ وماذا يعني هذا؟.. أيعني أن من السهل نسياني؟.. كل ما يمكن ملاحظته هو ما أرتديه!

نظرت إليها مومّا متفرّسة:

ـ أوه.. أنت كثيرة السخرية! يجب أن تعرفي أن الأمر ليس كما تقولين.. أقتل نفسي من أجل بنية وجنتيك أو شكل عينيك النجلاوين وأهدابك الطويلة السوداء أو بشرتك الحريرية..

قاطعتها ليندساي:

ـ أما الباقي فاصطناعي مزيف! فتحت ـذا الصباغ الأحمر شعر بني بلون الجرذ.. وأنت تعرفين أن المرأة ـرة على أن تفعل أي شيء بواسطة مساحيق التجميل.

مومّا التي تعرف هذا خير معرفة لأنها تعلمت عدة حيل تجميلية مفيدة من صديقاتها، تمسكت برأيها. وقالت تجادلها:

ـ أنت تبدين رائعة وقت الفطور.. نعم لا أنكر أنك لست تلك

المخلوقة الفاتنة التي تبتسم وتمط شفتيها فوق صفحات المجلات..
ولكنني أفضل وجهك في الصباح، وأراهن أن شكلك مهما كان لون شعرك جميل كما هو.

نظرت ليندساي إليها مبتسمة:

ـ أنت ترضين غروري بكلامك! لكن لا علاقة لما أبدو عليه وقت الفطور بما أقول الآن.. فأنت التي ستواجهين حب عمرك بعد بضعة أيام.. كيف تشعرين وأنت سيدة متزوجة تقريباً؟

ـ مرعوبة!

لكن مونا لم تكن تبدو مرعوبة، بل بدت سعيدة، مشرقة بهية..

أردفت: «آه! أنا منفعلة انفعالاً يجعلني لا أستطيع النوم! حين أفكر أنه لم يبق على اجتماعي بتوير سوى أسبوع بعده لن يفرقنا شيء أحس بمشاعر غريبة تدب في أوصالي».

ـ أوصالك؟

وتظاهرت ليندساي بأن الذهول تولاها قبل أن تغرق الفتاتان في ضحك طفولي.. بعد قليل أردفت ليندسي بمحبة:

ـ حسناً.. أعتقد أن توير يستحقك.. وأنت تستحقينه.. أراهن أن ما من فتاة في «بريزبن» بل في أوستراليا كلها.. تلقت مثلك تودداً ملتهباً، شاعرياً.

ردت مونا بخجل:

ـ إلاّك.. على يد أريك هوپر.

بدت ليندساي للحظة أصغر عمراً، ضعيفة ومرتبكة:

ـ أجل.. سنرى.

عبست مونا، فسارعت ليندساي إلى إخفاء ارتباكها فسألت:

ـ هل ستخرجين معه الليلة؟

ـ أجل.

التقطت ليندساي حقيبتها ودثارها برشاقة، وألقت نظرة أخيرة

على نفسها في المرآة قبل أن ترتدّ بإتقان العارضة المتمرسة.

ـ حسناً..

ـ آه.. جداً..

ليندساي تحت هذا المظهر البارد الساخر امرأة حساسة.. وهي تحب أريك هوپر كثيراً.. حسناً، ولمَ لا؟ فعائلته بارزة في المجتمع، وهو رجل طموح تتمناه أية امرأة ذكية..

عائلة هوپر من أكبر العائلات الريفية التي تعنى بتربية الماشية وقد تعرّضت لأزمات كثيرة، ولكن أريك رجل ذكي، عازم على إعادة أعمال العائلة إلى مركزها السابق. أمه وأم مونا صديقتان عزيزتان.. وكانت مونا هي التي عرفتهما إلى بعضهما بعضاً منذ شهرين.. ومنذ ذلك الوقت وهي تتساءل عن الخوف الذي تشعر به بسبب علاقتهما.

وقفت عابسة تنظر إلى الباب وهو ينغلق وراء ليندساي وظلت واقفة هكذا حتى أبعد الهاتف الأفكار الأخرى من رأسها، فهرعت إلى الهاتف لترد على حبيبها.

في هذا الوقت، استقلت ليندساي سيارة أجرة أقلتها إلى باب سري يفضي إلى بهو خفي استقبلها منه حارس بارد قال لها مبتسماً:

ـ السيد هوپر هنا آنسة فيريان.

أجل.. هاهو.. أطول منها بقليل، مميز كثيراً بحيث شعرت بالفخر وهو يمسك يدها ليقتادها إلى مائدة صغيرة خاصة، مخبأة وراء ستارة.

في بداية صداقتهما أخطأت فعانقته ولكنه سرعان ما أفهمها بلطف أن مثل هذه العناقات، وإن كانت عادية في أوساطها، إلا أنها ليست له.. في ذلك الوقت جرحها تصرفه، لكن معرفته عن كثب مكنتها من الفهم.. أريك لا يحب الابتعاد عن الرسميات، وبشكل عجيب.. وهذا بخلاف تلك اللحظات الخاصة..

أحرق الدم الحار حنجرتها بسبب ذكرى إحدى الأمسيات في

الأسبوع المنصرم.. وقد كشفت لها نظرة سريعة إليه أنه يتذكر تلك المشاعر المتوحشة التي قلبته من رجل متماسك إلى رجل مشبوب العاطفة ولولا وصول مومّا لوقع ما تخشاه.

برق شيء في أعماق عينيه، لكن فمه الصارم بقي ملتزماً بابتسامة متزمتة لا تكشف عن شيء..

قال: «ما أجملك.. يا حبي الخاص».

منذ شهرين، ما كان شيء قادراً على دفعها إلى الخجل ولكن لأريك القدرة على ذلك.. ارتعشت يدها وهي في يده التي كانت تساعدها على الجلوس.

كان الطعام ممتازاً ومختاراً بعناية ومطهواً ومقدماً بلباقة ودقة.. كان جميع من في المطعم مرتدياً ملابس فخمة ويحيطهم جو من الكبت. وحدهم الأثرياء يأتون إلى هذا المطعم.. كان مالكه يتجنب سمة الحداثة، لذا أصبح أقرب إلى النادي.. وكانت أسعاره طائلة ولكن أريك لا يرغب في سوى الأفضل.. نعم لقد اجترح الأعاجيب في عمله، ولكنه لا يُعتبر بعد من بين النخبة التي تستطيع تحمل أسعار كهذه دون أن يرف لها جفن.

سألها بعدما طلب الطعام:

ـ أكل شيء جاهز لليوم الكبير؟

ضحكت ليندساي:

ـ تقريباً.. سنسافر إلى «غولدكوست» غداً.. وسنأخذ فستان العرس معنا. تقول مومّا إننا سندخل بيت مجانين هناك!

نظر إليها وحاجباه الرفيعان مضمومان:

ـ ظننت أن مومّا سافرت وأنك لن تلحقي بها حتى يوم الجمعة.

ـ كانت هذه الخطة الأصلية.. لكن وقع ما أخر فستان العرس. فاضطرت المسكينة للبقاء من أجل أن تقيس الفستان اليوم.. وبما أنك لن تكون هنا فكرت أن أسافر معها، بدل التسكع بمفردي حتى عودتك

من رحلة عملك.

قال بعد لحظة صمت مبتسماً:

ـ فهمت.. تصرف عاقل منك حبيبتي.. أفضل أن تكوني هناك بدل البقاء بمفردك هنا بدوني.

ضحكت بسعادة:

ـ أنا أكثر من قادرة على العناية بنفسي.

لكن تصرفه أثارها.. لقد مضت سنوات طويلة منذ اهتم بها أحد وأحس بالحاجة لحمايتها.. أمها، تلك المرأة العملية التي تأكدت من مواهب ابنتها الخاصة شجعتها بل أجبرتها تقريباً على استغلال تلك المواهب منذ بلغت سن السادسة عشرة.. ولقد تأكدت أن ابنتها قادرة على مواجهة أي موقف، ونصحتها بقسوة عن الرجال والأخلاق. كانت أمها بطريقتها الخاصة طيبة مع ليندساي وكانت تقف في وجه أي ميل نحو المثاليات الحالمة التي قد تكون خطرة على فتاة تملك جمال ليندساي. ولكن برودة أمها جعلتها تفتقر إلى الدفء. لذا كانت باردة وحيدة حتى جاء أريك بتوددة الجاد ومعرفته لحاجاتها.. لم تشعر منذ تركت منزل أبيها قبل سنوات وهي في الثانية عشرة بهذا الاطمئنان.

رفع حاجبه:

ـ أوه.. لقد قمت بعمل رائع في رعاية نفسك.. لكنك بحاجة لمن يعتني بك.. أنت جميلة كثيراً لذا يجب ألا تبقي بمفردك في عالم مليء بالذئاب.

كاد قلبها يتوقف! أهذا طلب زواج؟

لكن لا.. بالتأكيد لا.. فقد ابتسم ونطق بتعليق آخر فعاد قلبها للخفقان.

هل كان ما قاله مقدمات؟ أم هذا إطراء خفيف يرى الرجال أنفسهم مضطرون إلى قوله وهم مع امرأة جذابة؟

لم تعد ليندساي تحس بالحرارة لأن العديد من الرجال لا يرون

فيها سوى جسد ووجه جميل.. اختيار أمها لهذه المهنة لها جعل رد هذا الفعل أمراً حتمياً.. لكن حياتها كعارضة أزياء، ستكون قصيرة الأمد.. حين تنته تنو العودة إلى الجامعة لدراسة الحقوق، فمنذ بدأت تجني المال وهي تدخره من أجل هذا الهدف.

وحده الزواج قد يحولها عن هدفها.. كانت أحياناً تأمل أن يتمتع زوجها بفكرة أن تكون زوجته محامية.. لكن مع مرور السنوات تداعت مثالياتها تحت وطأة الحقيقة القاسية التي رأتها في تصرفات الرجال وأخلاقهم.. وكان هذا ما حذرتها أمها منه.. كان هناك رجال كثيرون على استعداد ليجزموا بحبهم لها لقاء حقوق لهم في جسدها، ولكن أحداً منهم لم يكن يريد أكثر من هذا.

في البداية توقعت أن يكون أريك منهم. كان إعجابها به فورياً وساطعاً.. ولكن منذ موعدها الأول توقعت باشمئزاز أن يقوم بالطلب الحتمي. لكن ويا للذهول، لم يقم بأي جهد لطلب شيء منها.. فمنذ البداية عاملها وحدثها على أنها إنسانة ذكية.

فكان أن وقعت في الحب بشكل صارخ لا يصدق، زاده شوق قلبها الجائع إلى راحة كانت تؤمن أنها محرومة منها إلى الأبد. لكن سنوات الحذر المتجذرة منعتها من الكشف عن هذا الحب، ولم تبدأ بالتعبير عنه إلا منذ ليال فقد راحت عيناها تضيئان بنور المرأة العاشقة.

عليه الآن أن يكون عالماً بمشاعري نحوه.. وأطبق الخجل على عنقها وهي تنظر إليه.

ولكنه لم يكن ينظر إليها.. بل كانت عيناه مركزتين على شيء ما، ثم شتم بصوت منخفض: اللعنة!

عادت عيناه إليها:

ـ آسف يا حبيبتي.. لكن ذلك الشخص هناك هو واحد من أهم زبائني. لقد دخل للتو وسيراني في أية لحظة.

ـ وهل هذه كارثة؟

لا بد أنه انتبه إلى انزعاجها فقد لامس يدها مطمئناً:

ـ لا أريد أن أعرضك إلى مداعباته السخيفة.. ولن تعجبك طريقة تصرفه.. إنه في أغلب الأحيان فظ.. ولكنه لسوء الحظ مهم لي.. فهل تمانعين إن ذهبت الآن لأنقل الحرب إلى جبهة الأعداء؟ لأنه عندئذ لن يزعجنا.

ـ بالطبع لن أعترض.

ـ باركك الله!

جمّلت ابتسامة رقيقة شفتي ليندساي وهو يقف.. جرَّ دافع لا يقاوم عينيها إلى آخر الغرفة.. فرأت رجلاً واقفاً يهمّ بالخروج، كان قد تعشى بمفرده وهو الآن ينظر إليها وعيناه تبرقان تحت حاجبين رفيعين يضفيان عليه مظهر القوة.. طويل ضخم في سترة السهرة التقليدية، ولكنه بدا أكثر أناقة من أي رجل آخر رأته يوماً... كان شديد الاسمرار، أسود العينين، أسود الشعر، ولكن أكثر بروزاً في وجهه الوسيم غير العادي، فكه وذقنه الدالين على العزم والتصميم.

مرت عيناه السوداوان عليها بنفاذ كهربائي.. ولم يخفِ المتعة التي يحس بها.

اقشعرت بشرتها التي شعرت بخطر داهم، تلاقت نظرتهما في لحظة طويلة قبل أن يبتسم ثم ارتد إلى الساقي.

عندما مرّ بليندساي أبعدت وجهها وغضت طرفها ولكنها أحست بتأثير نظرته حتى بعد دقائق من ابتعاده.. إن هذا الشخص كائناً من يكون هو شخص مهم، فحوله شحنة قاتلة وكأنه برق أسود.

عندما عاد أريك معتذراً وفي صوته نبرة لا اسم لها، كانت قد أنهت شرب العصير وتقدمت شوطاً في استعادة تماسكها الذي انتزعها منه ذلك اللقاء القصير المثير للتوتر.

بعد ساعة على هذا، قال أريك:

ـ فلنذهب.. أتريدين الرقص حبيبتي؟

ـ لا.

ما زال الوقت مبكراً.. ولكن تلك الليلة فقدت بريقها.. وبما أن مومًا كانت عازمة على السفر في ساعة مبكرة من الصباح التالي فقد كان من المستحسن العودة إلى المنزل باكراً.

قالت لأريك هذا، فعلق وهو يجلس في السيارة:

ـ وأنا كذلك.. أتساءل لماذا يسيرون الرحلات في وقت باكر هكذا... في الساعة السابعة. أتصدقين؟

تنهدت: «حبيبي المسكين! لا أظن أننا سنسافر باكراً هكذا. وأنا واثقة أنني سمعت الهاتف يرن أثناء خروجي.. وهذا يعني أن توير عاد ولا شك أنهما الآن في حفلة عائلة مايدوود».

في الشقة الفارغة جذبها بين ذراعيه فاستجابت طوعاً وأحست بالأمان. وهمس باسمها في أذنها فشدّت نفسها إليه أكثر لأنها بحاجة إلى قوته ولكن تكتكة الباب جعلتهما ينفصلان.

دخلت مومًا مشرقة العينين، تغمر وجهها الجميل خطوط عناء غير معتادة.. وقالت بحدة دون أن تنظر إلى أي منهما:

ـ آسفة! لين، هل لك أن تأتي معي أرجوك؟

في غرفة النوم نظرت إليها ليندساي بلهفة وسألت:

ـ ما الأمر؟ مومًا.. توير ليس السبب! أليس كذلك؟ مومًا!

رمت موما يديها حول ليندا تضمها بشدة وقالت بصوت سريع:

ـ لا! لقد أمضيت ساعة وأنا أفكر في طريقة ما لأخبرك بهذا الخبر بلطف ولكنني لم أجد طريقة.. لقد أخبرني توير ونحن.. كان قد عاد من ميلبورن حيث شاهد كريس راسمسون التي يعرفها منذ سنوات وقالت.. آه! لين.. إنه أريك! إنه خطيبها.. خطيب كريس وهما متفقان على كل شيء، وسيعلنان الخطوبة بعد شهر أي يوم عيد مولدها.. أوه لين.. أنا آسفة لكن كان عليّ إخبارك.

توقفت الكلمات السريعة الخائفة عندما حررت ليندساي نفسها من

ذراعي صديقتها.. لم تقل شيئاً.. ولم تنظر إلى مومًا وهي تعود برصانة العارضة وثباتها إلى غرفة الجلوس.

ـ لين؟

راحت تخبره ما أخبرتها به صديقتها بلهجة خشنة وكانت تراقب وجهه بقسوة وريبة.. وعرفت أن الأمر صحيح قبل أن يعترف ولكن لم يكن على وجهه المتعجرف أثر للخجل أو الخزي.

قال بغضب:

ـ أنا مضطر لهذا.. فهي الطريقة الوحيدة لكسب دعم دونثان راسمسون.

ـ لماذا؟

لا، ليست هي المتكلمة بل امرأة من ثلج ذات صوت بارد.

ـ لأن أعمالي التي بذلت جهدي لأوقفها على قدميها، ستنهار من دون هذا عزيزتي.. وهذا لن يحدث أبداً خاصة وهناك طريقة لمنع الانهيار..

ـ بما فيها الزواج بامرأة لا تحبها؟

هز كتفيه ولم تكن عيناه تفارقان وجهها:

ـ أوه.. لا تشعري بالشفقة على كريس.. تعرف على ماذا ستحصل، فما هذا بزواجها الأول.

رفعت رأسها عالياً بكبرياء:

ـ آمل أن تكونا سعيدين.

ابتسم أريك:

ـ ستحظى كريس بزوج وأولاد.. فهذا كل ما تريده.. وسأنال أنا مال الأخ الكبير دونثان، وعندئذ سأضع أعمالي في مسارها الصحيح.. و..

انخفض صوته عدة درجات وهو يتقدم إليها ليجذبها إلى ذراعيه:

ـ.. وسيكون لي أرق وألذ عشيقة لتبقي قلبي شاباً.

استجابت له لأنها تحبه ولكن الدموع ملأت مآقيها فهمس بصوت كسير:

ـ أوه.. يا إلهي! لا تجعلي الأمور صعبة عليّ أكثر مما هي عليه حبيبتي، حبي، على الأقل امنحيني الثقة لأنني أحبك.

كان يعني ما يقول.. وأغمضت ليندساي عينيها والعذاب يمزق قلبها بمخالب قاسية.. فهو كان بحاجة إليها.. ولكن رغبته في السلطة والثراء كانت أكبر من أية مشاعر قد تثيرها فيه..

قالت وهي تحاول المحافظة على صوتها:

ـ من الأفضل أن ترحل.

ارتفعت يداه لتحيطا بوجهها فانتقل ارتعاشهما إلى بشرتها..

صاح بصوت أجش:

ـ لماذا لم تسافر مومًا إلى موطنها؟ لقد خططت.. وأملت.. أن أجعلك الليلة لي.

لا شك أنه أحس بانتفاضتها.. فتمتم بصوت متهدج:

ـ لكن هذا أمر محتم حلوتي ليندساي.. فانت تحبينني، وتحت هذه الواجهة الباردة هناك امرأة مشتاقة.. انظري إليّ حبيبتي.

ارتفعت رموشها، فابتسم وأحنى رأسه يعانقها.. ارتجفت، ولكنها انفصلت عنه فتركها وهو لا يستطيع إخفاء رضاه لتجاوبها..

قال:

ـ سأذهب الآن.. وأنا آسف لأنك سمعت الخبر بهذه الطريقة.

ـ وهل هناك طريقة لطيفة لإخطاري بمثل هذا؟

عبس ولكنه لم يقترب منها:

ـ لا.. لكن بإمكاني على الأقل أن أحضنك وأواسيك وأنا أخبرك.. أنت مصدومة الآن، ولكن حين تتغلبين على الصدمة سترين أننا سنحظى بعسل الحب بدون المرارة.. تذكري فقط أنني أحبك أكثر مما أحببت أية امرأة يوماً.

دخلت مومًا بعدما سمعت صوت إقفال الباب خلفه ووقفت تنظر إلى ليندساي. كانت قسمات وجهها قاسية ولكن نظرة واحدة ألقتها على وجه صديقتها دفعت الدموع إلى مآقيها.

قالت بهدوء: «قولي لي أن أذهب إلى الجحيم إذا أردت.. أعرف أنك تفضلين تضميد جروحك في السر.. لكن إن أردت الكلام فأنا حاضرة.. لين.. كنت مضطرة إلى إخبارك».

أحست ليندساي بالراحة عندما غرقت في مقعد. قالت: «أجل.. بالتأكيد».

ـ كرهت هذا.. لكن.. آه لين! كيف استطاع؟

تسارع صوت ليندساي العميق البطيء:

ـ قال إنه لن يكون لهذا أي فرق لنا.. وأعتقد أن الأمر صفقة أكثر منه زواجاً. كريس راسمسون تريد زوجاً وأطفالاً وأريك يريد حصتها من مال راسمسون.. أو دعم دونثان راسمسون.. لكنني لا أستطيع رؤية نفسي عشيقة.. لكن.. آه مومًا.. لا أظن أنني سأصمد أمامه.. أنا أحبه كثيراً!

ابتلعت مومًا ريقها مرعوبة من اليأس في الصوت العميق.

قالت بحدة:

ـ ما تحتاجين إليه هو شيء ساخن، حليب حلو لتشربيه، وإلى الجحيم بالسعرات الحرارية.

ـ شكراً لك.

أسندت رأسها إلى الوراء في المقعد، وأغمضت عينيها، تشد قبضتيها وتقاوم عذاباً شديداً ظنت أنها ستموت من شدة ألمه.

حين عادت مومًا بالكاكاو، فتحت ليندساي عينيها، ونظرت إليها وكأنها لم ترها من ذي قبل.

قدمت مومًا الكوب:

ـ خذي.. أعرف أنك لا تحبينه، ولكنه سيساعدك على النوم.

جلسنا تحتسيان الشراب الساخن، ثم سألت مومّا مترددة:

ـ لين.. هل سيكون الأمر سيئاً جداً؟ آه أعرف أنك مجروحة.. لكن الأسوأ من ذلك أن تعيشي في وهم..

بدا أن هناك طبولاً تضرب في صدغي ليندساي بحيث كانت تنتفض بقوة وبشكل مؤلم، لم تعد تستطيع معه أن تفكر.. ردت بصراحة وهي تضغط كفيها على صدغيها:

ـ لا يريد أن تستمر الأمور هكذا بل يريد مني أن أصبح عشيقته.

ارتبكت مومّا التي أسرعت ترتشف الكاكاو لإخفاء ارتباكها الذي كادت تختنق به ثم قالت بصوت مخنوق: آه!

بدأت ليندساي تضحك ولكنها أدركت في الوقت المناسب الهستيريا في ضحكها فأجبرت نفسها على التوقف.

ـ بإمكانك قول.. أوه.. فلم.. لم يكن بيننا شيء.

قالت المسكينة مومّا مجدداً:

ـ أوه.. أنا آسفة.. الأمر فقط أنني..

أراحت ليندساي رأسها المتألم إلى الخلف وأدارت وجهها.

قالت: «أعرف.. يا إلهي.. كيف يجرؤ! يخطب ود امرأة أخرى لمالها ويتوقع مني أن.. أن.. أرحب به! قد أقتله!

وضعت ظاهر يديها على عينيها تبكي بشدة:

ـ لكنني.. أظن.. لا أدري إن كنت قادرة على مقاومته.. أكرهه.. ولكنني أريده!

هبّت مومّا واقفة وجلست على ذراع المقعد قرب ليندساي تحتضنها:

ـ أوه.. لين.. لا تبكي.. إنه لا يستحق.. حبيبتي أرجوك لا تبكي.. إنه خنزير قذر.. وأنت تساوين ألفاً منه.

سحبت ليندساي نفساً عميقاً.. أبقته في صدرها لحظات ثم زفرته وقالت بمرارة:

ـ أوه.. إن هذا صحيح.. ولكن ذلك كله لا يساعدني.. أليس كذلك؟

ـ تذكري قذارته وستكونين أشد غضباً من أن تشعري بالبؤس.

ضمتها مرة أخرى قبل أن تعود إلى كرسيها لترتشف الكاكاو بصمت مدة دقائق.

سألت مومّا:

ـ لين، اطلبي مني أن أذهب إلى الجحيم إذا أحببت.. لكن هل سبق أن أقمت علاقة مع أحد من ذي قبل؟

التقت عينا الفتاة بشيء من التحدي:

ـ لا.. هناك الكثير من العذراوات في مثل عمري.. لكننا لا نعلن عن وجودنا.

ـ وأنت متأكدة أنك لا ترغبين..

ـ لا! أحب أريك، ولا أظن أنني سأحب غيره يوماً. لكن أمي كانت سيدة متشددة متزمتة وقبل أن تموت غرست في نفسي بذرة التمسك بالفضيلة.. فنهاية كل علاقة الزواج.. لا يمكن أن يكون بحبني.. وإلا لما اقترح مثل هذا الأمر الشائن. إنه.. إنه لا يحترمني مومّا.. وهو واثق أنني ما إن أتغلب على الصدمة حتى أوافق على خطته.. وهذا ما يجرحني كثيراً. أحبه ويقول إنه يحبني.. لكنه لا يحبني.. ولم يحبني قط.. كان كل شيء كذبة كبيرة وكل ما قاله كذب، كذب.

ـ هل وعدك بالزواج؟

ـ لا.. يا لي من حمقاء بلهاء! لقد أملت بهذا فقط.. كان عليّ أن أعرف أن أمثال أريك لا يتزوجون عارضات أزياء لا يعرفون أصلهم بل ينامون معهن فقط.

اعترضت مومّا:

ـ كلام سخيف..! إنه وحش وأنت سيدة محترمة! ليت زواجي

غير قريب لأعينك على صدمتك.

خطرت ببالها فكرة جعلتها تجفل:

ـ أوه.. يا إلهي.. سيكون في حفل الزفاف.. وكريستيان راسمسون أيضاً.. وأسرة راسمسون أصدقاء أهلنا.. لقد سرت أمي كثيراً حين وافق دونڤان وكريستيان على المجيء.

نظرت إلى صديقتها برهبة:

ـ أوه.. لين.. فلنرج ألا يأتي.

ـ سيكون هناك.. ولو ليتأكد من أنني لن أخبر خطيبته بكل شيء..

ـ وماذا ستفعل؟

ـ ستتزوجين توير وستكونين سعيدة كما هو مقدر لك، أما أنا فسأحسن التصرف في هذا اليوم.. فعلى عارضات الأزياء أن يكن ممثلات كفؤات.. ثم سأعود إلى بلادي حيث لن يجدني أحد.

فغرت مومّا فاها لحظات:

ـ بلادك؟ تعنين إلى..؟ لكن.. لين.. هذا يعني التخلي عن كل ما عملت بمشقة من أجله.

أغمضت ليندساي عينيها لحظات:

ـ الليلة بعدما اعترف أنه سيتزوجها.. عانقني فاستجبت له.. يعرف أنني أحبه.. لذا لن أنتظر هنا وكأنني بطة تنتظر الصياد! ولقد تلقيت للتو رسالة من أبي تبين لي من بين السطور أنه وزوجته بحاجة لمساعدتي.

ـ لو كنت مكانك لتركت الأمر حتى الغد.. ففي الصباح ستكونين أفضل حالاً.

لكن الصباح زاد من قوة قرارها.. فعندما كانت مومّا تقود السيارة باتجاه «سيرفرز پارادايس» أرض المرح في أوستراليا، اشتد تصميم ليندساي على القرار.. لقد مر زمن لم تزر فيه بلادها.. سنوات طويلة

لم يكن لها فيها صلة مع أبيها إلا عبر رسائل أسبوعية وهي لم تقابل زوجة أبيها حتى أنها تعرف قسمات الوجه اللطيفة الرقيقة من الصور.. الوطن! ربما هناك ستتمكن من نسيان خيانة أريك لها.

منذ عشر سنوات تركت أمها زوجها لتسافر إلى بريزبن للبدء بحياة جديدة مولتها من حسابها المصرفي الذي كان عبارة عن ثمن مزرعة نائية بعيدة، أمضت فيها آخر ثلاث عشرة سنة. ولقد كتبت ليندساي إلى والدها، وأمضت عطلات الأعياد معه مدة خمس سنوات ولكنه تزوج مجدداً فاقترحت أمها أن تعطيه وزوجته الجديدة وقتاً للاستقرار. ومنذ ذلك الوقت لم تسافر إليه، مع أن لها شقيقاً صغيراً في الثالثة من عمره يدعى جون لم تره حتى الآن.

وها هي زوجة أبيها لولا حامل مرة أخرى.. لكنها متعبة في حملها هذه المرة.

ربما هو القدر الذي جعل ليندساي بحاجة إلى أبيها وأبوها بحاجة إليها في الوقت ذاته.. ما إن وصلت إلى «سيرفرز پارادايز» حتى أخذت تضع الخطط لتنظيم رحلتها إلى موطنها.

صاحت مومّا: «لكن، لماذا في اليوم التالي على زفافي بالذات؟ لماذا لا تبقين حتى عودتي أنا وتوير؟»

لقد اتخذت القرار:

ـ لا! سأعود إلى الشقة حالما تسافران في رحلة شهر العسل.. إنه الحل الأفضل.

كان تقبلها لوجود أريك في حفل الزفاف غير ملفوظ.. أردفت:

لقد رتبت لي أمك اللطيفة أمر عودتي.

ـ أجل.. مع السيد وايتس وزوجته اللذين يغادران كل حفلة باكراً ليكونا في الفراش في العاشرة والنصف.. أوه.. أعتقد أن هذا أفضل لك.. ولكنني سأشتاق إليك كثيراً!

ـ هراء.. سيكون معك هوپر الذي لديه كل ما تحتاجين إليه.

ـ لا يجد المرء الأصدقاء بسهولة.. سأراسلك.. أعد أن أراسلك كل أسبوع شرط ألا تخبري أحداً.. حذار! سأتوقع الردود!

وبهذا كان على مومًا أن تكتفي.. وكانت الأيام القليلة التالية نشطة كثيراً بحيث أنه لم يكن هناك وقت لجلسات مصارحة أخرى. يملك أهل مومًا منزلاً يقع في مواجهة إحدى القنوات التي هي أحد وجوه السيرڤرز.. كان منزلاً جميلاً، حديثاً، ديكوره رائع، ومركبه كبير يرسو على بُعد باردات من الحديقة حيث تزهر أشجار الخباز والزنبق الإفريقي.

بدا المنزل مكتظاً بالناس ففيه الأقارب والأصدقاء ومتعهدو الطعام وهم في انشغال دائم واستقبالات مستمرة جعلت ليندساي لا تجد وقتاً للتفكير.. كانت مصممة كثيراً على أن لا يفسد عرس مومًا شيء، لذا كانت تغيّب نفسها عن الوعي كل ليلة بأقراص منومة.. وبين المنوّم والنشاط كانت تظهر طبيعية، أنيقة، مرتبة ذات أخلاق رفيعة. ولم تكن تدري إن كان هناك من يرى شيئاً من خلال نظرتها المبهمة الغامضة. فلا أحد علق على هذا.

***

٢ ـ لم تنظر إلى الخلف

كان العرس رائعاً.

هذا ما قاله الجميع.. بدت مومًا عروساً فاتنة وبدا توبر كل ما يتوقعه المرء من العريس، فخوراً، حنوناً، متمالكاً، ومتوتراً.. كانت إشبينة العروس ليندساي ومرافقاتها الأربع الصغيرات من أقارب العروس فاتنات. أما الإشبين فقد ساعد كثيراً وألقى خطاباً جريئاً في حفل الاستقبال فأبدى عدم تصديقه لنفسه لأنه يشارك مثل هذه الإشبينة الجميلة.

كان هناك بالتأكيد الخوف المعتاد. ولكن ما إن حلت الساعة الثامنة مساءً حتى انتسى كل شيء وسارت الأمور بحركة ناشطة منظمة.. فكرت ليندساي الرابطة الجأش حتى الآن أنه إذا لم يأتها العون سريعاً فستحرج الجميع بالبكاء بمرارة أمامهم. فلقد كان أريك وكريستيان راسمسون معاً طوال اليوم وكريستيان هذه ذات شعر بني قاتم ووجه جميل متكبر ملؤه الثقة بالنفس.

اكتشفت ليندساي معنى أن تنزف ببطء وأن تموت بصمت لا يعرف به أحد. أدارت وجهها متألمة عنهما وهما يرقصان:

ـ آه! يا الهي!

انتفضت والدة مومًا: «ما بك؟»

لم تسمع ما قالته لكنها لمّا لاحظت نظرة ليندساي ابتسمت:

ـ آه! أجل. فهمت من تعنين عزيزتي.. ذلك هو دونڤان

راسمسون. تعالي كي.. آه.. بإمكان المرء الاعتماد عليه لالتقاط أجمل فتاة في المكان! إنه شيطان ولكنه في غاية الوسامة لذا ستسامحينه على كل شيء! دون عزيزي هذه ليندساي فيربان.

قامت بالتعارف بصوت جليّ ممزوج بضحكة.. لأن الإثنين كانا يتبادلان النظرات وكأنهما وقعا في الحب في تلك اللحظة بالذات.

كان هو الرجل الذي رمقها بنظراته في المطعم في الليلة التي عرفت فيها بخيانة أريك.. بحثت في وجهه يائسة لترى ما إذا كان في نظرته ما يدل على تعرفه إليها.. تنفست الصعداء حين وجدت أن الشيء الوحيد المنعكس في أساريره الوسيمة هو الإعجاب والصدمة الممزوجين بالسخرية.. لم يكن يشبه أخته إلا في لون البشرة والشعر الأحمر القاتم، وربما أيضاً في الوجه المتكبر وبروز فكه المتغطرس الذي سرعان ما لاحظته.. أما كريستيان فكانت صغيرة القد نحيلة، كان أخاها أطول من ليندساي كثيراً مع أنها طويلة أكثر من الطول العادي، وله كتفان عريضتان، ورشاقة حيوان لم تستطع حتى الثياب المفصلة بإتقان أن تخفيها.

بدل أن يصافحها رفع يدها إلى شفتيه، آسراً عينيها أسراً دفع اللون إلى بشرتها فأشاحت بوجهها.

قال بصوت يشبهه، عميق وخطير:

ـ سمعت الكثير عنك.

ارتفعت عيناها إليه لأنها لاحظت الغضب في صوته، فردت برقة مع أنها تحس بغليان في دمها:

ـ أنا لا أعرف سوى اسمك لسوء الحظ.

أخفض شخص ما صوت الموسيقى.. فوقفا في صمت مطبق.. يدها ضائعة في قبضته وكل ما حولهما صاخب.

قال: «إذن يجب أن أملأ الفراغ ببعض التفاصيل».

وجذبها بين ذراعيه ولكن تعابير وجهه بدت غامضة وهو ينظر إلى

الوجه المرتفع إليه.

ليندساي معتادة على من يتفرس بها.. وقد علّمها التدريب أن أفضل طريقة للاستفادة من جمالها: العينان النجلاوان ولونهما غير العادي ووجنتاها المذهلتان المناسبتان كثيراً للتصوير، وجسدها النحيل المتلوي كالأفعى والرشيق بشكل طبيعي، وبشرة حريرية شاحبة.. في أوستراليا آلاف النساء اللواتي هن أجمل منها، لكن حظها الوافر جعلها طويلة رشيقة تظهر في صورها كالحلم.

قال دونڤان راسمسون بهدوء: جمالك غير معقول.

أخبرها وميض عينيه الجريئتين أنه يعني ما يقول. أشاحت بوجهها بعيداً ولكن اللون الفضاح زحف إلى وجنتيها وكأنها فتاة في السابعة عشرة من عمرها تدعى إلى أول حفل راقص لا امرأة حياتها وقلبها ملقيان ومتناثران تحت قدميها.

قال: «ليندساي».

رفعت بصرها إليه مجدداً مجفلة.. فابتسم:

ـ سيدتي الجميلة.. ليندساي.. هل لك أم رومانسية؟

ـ لا.

أمها بعيدة كل البعد عن الرومانسية، فهي التي أدركت ما تملكه ابنتها ووضعتها على طريق احتراف عرض الأزياء.

ـ حقاً! وهل هذا اسمك الحقيقي أم اختراع وكيل ما؟

ابتسمت على مضض: «اسمي الحقيقي».

جابت عيناها الغرفة هرباً من نظرة شريكها فتلاقت نظرتها بنظرة أريك، عندئذ تحرك الألم في أعماق قلبها.. فرفعت بصرها عامدة متعمدة وابتسمت لدونڤان مجدداً بإغراء.

اختلست نظرة سريعة إلى أريك فرأت شفتيه تشتدان من الغضب ووجهه يشحب.. يستحق هذا! الخنزير القذر! فليظن أنها ودونڤان راسمسون يتمتعان بصحبة بعضهما بعضاً.. حمل نوع من التهور

اليائس شرارات التحدي إلى عينيها.. أجبرت نفسها على الاسترخاء فشعرت أن شريكها استجاب لها إذ ضمها إليه.

أتاها صوته:

ـ وهل من المهم أن يلتصق اسمك في الأذهان؟

ـ في مهنتي.. أجل.

ـ وهل تحبين مهنة عرض الأزياء؟

ارتفعت كتفاها الرقيقتان:

ـ إنه عمل شاق.. لكن له لحظات نجاحه.

وأخبرته بعضاً من تلك اللحظات وجعلته يضحك من تفاهة لا تصدق ارتكبها مصور، ومن حادثة تشمل طائر نعامة أوسترالية شديدة العدائية، وعرض أزياء صاخب مشاغب كادت تعجز فيه المتنافسات من إتمام عملهن.

بدا ضاحكاً أكثر جاذبية منه عابساً.. إن فتنته الخطيرة تزداد خطورة مع المرح.. وجعلها تضحك أيضاً وهذا غريب.. عندما كانت تتحدث إليه وهما يرقصان، ارتفع رأسها إلى الوراء وراحت تراقب النظرة الكئيبة على وجه أريك، النظرة التي اشتدت وأصبحت غضباً مكبوتاً.. فتمدد التهور في داخلها وعظم.. وللمرة الأولى منذ علمت خبر خيانته من مومّا تحس بالحياة تجري في دمها من جديد.

منذ ذلك الوقت لم يراقص دونڤان راسمسون غيرها.. وعندما كانت الموسيقى تتوقف كان يظل قربها يراقبها.. كان يقف بجو من السلطة المؤصلة فيه. إنه مثير.. والليلة هو لليندساي طوق نجاة. حين حان وقت مغادرة العروسين، صعدت ليندساي الدرج مسرعة لمساعدتها، فقالت مومّا بصوت هامس حاد:

ـ هاك..! ماذا قلت لك؟ لكن حبيبتي.. لين.. كوني حذرة.. إذا كان أريك سمكة سامة فدونڤان قرش مفترس ومميت.

ضحكت ليندساي بتهور:

ـ أوه.. لا تقلقي عليّ.. لست غبية إلى درجة التورط معه..

ـ حسناً.. لا.. لكنه قطعاً..

ودخلت والدة مومّا فضاع ما كانت ستقوله في قبل الوداع والدموع.

أخيراً غادر العروسان. لكن الجميع كان مصمماً على استمرار الحفلة إلا ليندساي التي انعزلت عن الجمع الضاحك الصاخب وراحت تبحث عن أسرة وايتس التي ستكون مستعدة الآن لاصطحابها معها إلى «بريزبن».

شدت أصابع قاسية على معصمها الرقيقة فحاولت آلياً أن تسحب يدها.

قال أريك بوحشية:

ـ أوه.. لا.. لن تهربي بهذه السهولة! بمَ تلعبين؟ أيتها الحمقاء الغبية! لدى دونڤان راسمسون نوايا غير شريفة تجاهك!

أسعدتها الغيرة الواضحة في صوته:

ـ وما شأنك أنت؟

اشتد ضغطه على معصمها بشكل لا يطاق. تمتم: «أيتها الدنيئة.. أنا قادر..».

ـ ليندساي؟

وقفا وراء الزاوية يتبادلان نظرات التحدي.. كانت خطوط بيضاء حول فمه وأنفه وبدت عيناه تحترقان ولكنها لوت ذراعها لتتحرر منه، وقالت بصوت مرتفع:

ـ قادمة دونڤان.

وتركت أريك بدون أن تنظر إليه، ولكن نبضاً مجنوناً مسروراً انتقل إلى جسدها ودفع الدم للاندفاع في شرايينها فصعد لون قرمزي إلى وجهها.. تذكرت آية من التوراة تقول: «الانتقام لي».. الليلة كان الانتقام لليندساي.. وآه.. ما أحلاه!

قال دونڤان ببرود:

ـ خلتني سمعت صوتك.. مع من كنت؟

ـ مع شخص لا أهمية له.

قال بهدوء: «أراك متوردة اشربي هذا العصير البارد».

راحت ترقص مع دونڤان الذي كان بريق الإعجاب واضحاً في عينيه السوداوين.. بين حين وآخر كانت ترى أريك مع خطيبته وفي إحدى المرات تلاقت نظراتهما وأسعدها ما رأته من إحباط فيهما. لماذا تعاني بمفردها؟ فليشعر بالغيرة من دونڤان راسمسون! إنه يستحق ذلك.

في منتصف الليل جاء السيد والسيدة وايتس وكانا على استعداد للذهاب.

اقترح دونڤان برقة:

ـ دعيني أوصلك! فأنا ذاهب إلى بريزبن بعد قليل.

ترددت ليندساي لحظة.. ورن تحذير أريك في أذنيها ثم ضحكت: سأحب هذا.

فكان أن غادرت عائلة وايتس.

سألها دونڤان: أين تسكنين؟

أعطته اسم الشارع فهز رأسه:

ـ أخبريني متى تريدين الذهاب.

ضحكت: «ليس قبل ساعات».

ابتسم وأحنى رأسه معانقاً إياها.

سألته مبتسمة: «وهل تفعل هذا دائماً؟»

ـ لا.. لكنك جميلة خلابة.. تغرين بجمالك أشدّ الرجال تمسكاً بالتقاليد.

ـ وأنت جريء.

رأت من فوق كتفه نظرة أريك المشبعة بالغيرة، فأدارت رأسها

ووضعته على صدر دونڤان العريض.

ـ متعبة؟

ـ لا شك أنني متعبة.

رفعت أصابعه ذقنها فتعرض وجهها لتساؤل عينيه.

ـ إذن فلنذهب.

ذهبا.. خرجا في الليل الدافىء المعطر برائحة شجر الآس وركبا سيارة رولز مريحة.. كانا يتكلمان في طريق العودة بمواضيع لا أهمية لها.. ولكن سرعان ما توالفت شدة مشاعرها مع شاعرية الليل والتعب منذ الصباح، فسقط رأسها ثم انزلق واستقر على كتفه.

أيقظها تكرار اسمها من منامها.. سمعت دونڤان.. سمعت التسلية في صوته العميق لكنها لم تستطع فتح عينيها.

قال وهو يضحك برقة ويرفعها بين ذراعيه:

ـ تعالي حلوتي.

تثاءبت: حذار.. لست خفيفة الوزن كما أبدو.

ـ آه.. لكنني قوي البنية.

وأحست بالأمان، مع ذلك قالت بوقار: أنزلني..

ـ أتستطيعين السير؟

غضبت لهذا، ففتحت عينيها بتكبر ونظرت إليه.. كان يبتسم فبدت عظام وجهه بارزة.. إنه كبير، قوي، وواثق من نفسه..

قالت: «أستطيع أن أسير».

أنزلها، ففقدت توازنها.. وكانا في المصعد، فتمسكت به فعادت البسمة للظهور، وأحنى رأسها يعانقها مستخدماً خبرته ليقنعها بالاسترخاء.

رنت أجراس الإنذار بحدة في أذنيها.. فنشنجت وأبعدت نفسها عنه.. ولكن ما إن توقف المصعد حتى طبع قبلة على كل جفن من جفنيها ليغمضهما.. فقالت وهي تدرك الخطر الذي يلحق بها:

ـ دونقان . .

قال بصوت رقيق: «هس . . ! هل أحملك؟»

ـ لا! أستطيع أن أسير!

لكنها وجدت نفسها بين ذراعيه ورأسها في دوار، فتمسكت بكتفيه . . في الأيام الماضية عملت جاهدة من أجل التحضير للحفلة ولكنها لم تكن تأكل إلا قليلاً، أما النوم فكانت تلجأ إليه بواسطة المنوّمات . . الآن أطبق هذا كله عليها.

قالت وهي تندس فيه: متعبة.

ـ كثيراً.

راح يتأمل جمالها القريب من الكمال:

ـ كل ما فيك يغري المرء. أنت كأفروديت . . فإن لم تكوني متعبة في الغد فسأطالبك بالكثير . . أما الليلة . .

قاطعته غاضبة، إنها متعبة فقط . .

ـ آه! أصمت.

فتحت عينيها تنظر إليه، كانت قسمات وجهه حادة وكانت عيناه السوداوان تراقبانها بتململ.

أردفت هامسة:

ـ أنت تتكلم كثيراً . .

ليس هناك ما هو مثير في كلامها ولكن هذه الكلمات بدت له دعوة فقال:

ـ أيتها الحمقاء الغبية . ! ماذا تريدين مني؟

ماذا؟ كيف تستطيع الإجابة عن هذا السؤال؟ هي نفسها لا تعرف. جعلها قوله ترتجف وتستيقظ من ضياعها ومما كادت تودي بنفسها إليه:

ـ يبدو أنني حمقاء غبية! ربما لأنني ما زلت عذراء.

باغته قولها وفاجأه ثم ما لبث أن اعتلى وجهه غضب بارد:

ـ هناك نوع من الانحراف الشاذ في محاولة إغواء عذراء ولكن لم يسبق لي أن حاولت ذلك . . أخبريني . . ماذا في ذهنك الآن؟ علاقة دائمة أم علاقة لا تزيد عن ليلة واحدة؟

شحب وجهها أمام ازدرائه:

ـ كل ما أريده أن أنام في سريري.

قال ساخراً:

ـ ماذا كنت تبغين من وراء إغوائي، أأردت ذلك لتشهري بي أو لتعيشي على حسابي؟

حط عليها الفهم فوراً، فابيضّ وجهها:

ـ أنا لا . . كيف تجرؤ . . كيف تجرؤ! أيها . . أيها . .

ـ الخنزير القذر! كثيراً ما تلجأ الفتيات إلى هذا وكثيراً ما يقع الرجال في الفخ، أما أنا فلا أقع فيه بسهولة.

صاحت:

ـ اذهب إلى الجحيم!

واندفع الإذلال إلى شرايينها بقوة تماثل قوة الغضب، مع أن اللؤم البارد الشرير في صوته أخافها وأجبرها على القول:

ـ لم يسبق أن فعلت شيئاً كهذا . . ولن أفعله الآن.

قال ساخراً: اطمأنّ قلبي.

فيما كان يهم بالخروج قال لها:

ـ أنت لا تبكين . . أليس كذلك؟

ـ لا . . أنا لا أبكي . . ولا أنوي البكاء، لست معتادة على البكاء.

ضحك:

ـ امرأة ذات روح معنوية قوية!

توقف قليلاً ثم أردف:

ـ شكراً لك ليندساي . . سيدتي الجميلة! الفائقة الجمال . . أنا آسف إذا كنت قد رفضت الهدية التي قدمتها لي . . سأراك مرة

أخرى.. عمت مساء.

بعد ساعة والنور الرمادي الذي يسبق الفجر يلوح في الأفق، قالت لسائق التاكسي:

- إلى المطار أرجوك، إلى بوابة السفر الخارجي.

ووضعت يديها في حضنها.. دون أن تنظر إلى الخلف.. ولم تكن تفكر في أريك والسيارة تشق بها الشوارع الصامتة.

٭٭٭

٣ - غريب في الجنة

ارتفع صوت جون بإلحاح:

- آيس كريم..! ليندي.. أريد آيس كريم!

ضحكت ليندساي في وجهه الصغير:

- وماذا ستقول الماما لو أطعمتك الآيس كريم قبل الغداء مباشرة؟

انفجر ضاحكاً:

- ولد طيب.. ولد طيب جون.

قالت السيدة وتكنس من وراء المنصة:

- لا بأس ليندي! إن السيدة جورغنز تشتري له عادة قطعة صغيرة.. أتأكل دائماً كل طعام الغداء جون؟

- أجل.

ضحكت ليندساي فهي تعرف جيداً شهية أخيها الصغير الذي لا يشبع. أصبحت خلال الشهر الذي أمضته في موطنها الأم البديلة.. فلولا كانت مريضة، قبل وبعد ولادة أختها الصغيرة.

كانت يده رطبة من الحر وعلى وجهه عرق.. كانت تفكر في رحلة العودة وفي الطريق الترابية التي ستسلكها فتذكرت الشوارع النظيفة والطرقات العامة ولكنها أبعدت الفكرة بسرعة.. لا فائدة من الاشتياق إلى تسهيلات المدينة فزوجة أبيها بحاجة إليها هنا، كما أن الحياة في هذه البلدة الصغيرة من نيوزيلند حيث ما زال أهلها ينادونها «ليندي» وهو اسمها في الطفولة، كانت فسحة تنفس لها وهي بأمس الحاجة

إليها.

في العام القادم ستسافر جنوباً إلى أوكلاند، إلى الجامعة لتبدأ بدراسة القانون.. كانت سعيدة لأنها عادت إلى حياة الطفولة ولأنها استعادت عائلة أبيها جورغنر بدل اسم عائلة أمها: «فيربان» وقصت شعرها الأحمر الطويل ليعود لون شعرها البني الذي يشبه لون الجوز اللماع.

سألت جون وهي تحمله ليرى ما على المنصة:

ـ أي نوع تريد؟

ـ أريد اللون الوردي.. لا.. أنظري ليندي هناك لون أخضر!

بدا لها اللون كريهاً فيما كانت تنظر إليه، حطت عينا جون على لون آخر فتردد.. تصاعدت أصوات من داخل المحل الصغير.. فسارعت ليندي تقول:

ـ سيستغرق هذا وقتاً.. وعلينا أن ننتظر.

ابتسمت صاحبة المحل لجون الساهم وتحركت مبتعدة:

قالت صاحبة المحل للقادم: نعم؟

رد الصوت بلطف بارد: «الهيرالد أرجوك».

تلوى جون متألماً لأن أصابع ليندساي ضغطت على بشرته، وقال محتجاً:

ـ لا تؤلميني.. مامي!

أنزلته ليندساي إلى الأرض وانحنت لتخفي وجهها الذي جف منه الدم.

كان هذا الصوت لأشهر طوال يلاحق أحلامها. إنه عميق ومؤثر.. عاد الدم إلى بشرتها لأن صاحبة المحل أعطته الصحيفة التي طلب، ودفع ثمنها ثم غادر المحل.

أما جون فكان يتذمر بسبب تصرفها الغريب.. أخيراً قال:

ـ الأخضر.. أرجوك.. مامي.

لم تكن المرة الأولى التي يناديها هكذا.. فهو في الرابعة وما زال صغيراً ليفهم أن الحبيبة ليندي هي أخته الكبيرة وأن بينها وبين أمه ثماني سنوات فقط.. وبسبب مرض لولا وقعت مسؤولية جون على كاهل ليندساي، التي كانت تستجيب له وهو يناديها مامي.

كانت اليوم شاكرة نداءه هذا.. فإن لاحظت عينا دونثان راسمسون أي شبه بين المخلوقة التي أغوته منذ سنة، وبين هذه المرأة المديدة الساقين المرتدية سروالاً قصيراً باهت اللون، وقميصاً قديماً فإن غلطة جون البريئة ستقضي على شكوكه. لم يكن هناك اختلاف في لون الشعر وتسريحته فقط، بل في الوزن أيضاً إذ ازداد وزنها فلم تعد فتاة نحيلة كتلك التي نزلت من طائرة «الجمبوجيت» في أوكلاند مرهقة، وأقلقت نفسها حتى الموت مدة ثلاثة أسابيع.

قطع صوت السيدة وتكنس عليها أفكارها:

ـ هل قررت حبيبي؟

ثم أخذت تعبىء كرة من الآيس كريم وأردفت:

ـ أتساءل من هو هذا الرجل؟ لقد رأيته ينظر إليك ليندي.. وبدا محبطاً حين ناداك الصغير مامي.

بذلت ليندي جهداً لتبتسم وردت بصوت مبهم:

ـ هو ليس من هنا إذن؟

ـ لا أعتقد.. هل نظرت إليه جيداً؟ يا للأسف! إنه أسمر طويل، وسيم وكأن الوسامة خلقت من أجله فقط.. لا.. أعتقد أنه يمر بالبلدة مرور الكرام.. ولا شك أنه يقصد الاشتراك في مباراة صيد السمك الكبرى.

هزت ليندساي رأسها.. فمن المحتمل أن يأتي دونثان راسمسون من أجل مباراة صيد السمك التي ستجري في مكان أبعد قليلاً على الساحل..

ردت بخفة:

ـ آه.. حسناً. حظاً سعيداً له إذن.. جاهز جون؟

في تاكايو بلدة صغيرة تقع على البحر ليس فيها إلا شارع وحيد ضيق يخلو من الغبار وقاعة بنيت أمام مقبرة تخلد ذكرى من مات في الحربين العالميتين، وكراج ومرفأ.

الكراج هو الذي لفت نظر ليندساي فقرب مضخات الوقود كان يقف رانج روفر رمادي وأمامه دونڤان راسمسون، الذي كان يراقب البائع وهو يملأ الخزان بالوقود.

أرادت تجنبه فأسرعت تفتح باب سيارة أبيها الكبيرة القديمة «الهولدن» ولكن تلك الحركة جذبت انتباهه فارتد رأسه وراح يراقبها تضع جون في مقعد الأمان الخاص به.

دفعت نظارة إلى عينيها.. لم يتعرف إليها دونڤان فلماذا تتعرف إليه.. إن آخر من قد يتوقع رؤيته في «تي تاكايو» ليندي فيربان التي قضى معها أمسية لم تكتمل متعتها.

استوت وراء المقود وراحت تمسح يديها لتجففهما، ثم وضعت المفتاح وشغلت السيارة. ولكن ثقتها بنفسها عادت فلوحت بيدها بلا اكتراث إلى ميليسا العاملة في محطة الوقود.. بعد نظرة سريعة إلى المرآة تبين لها أنه كان يتحدث إلى ميليسا، ولاحظت ابتسامته فأعادت عينيها إلى الطريق أمامها.. إنه يعبث معها بلا ريب فهي جميلة لعوب وعزباء، ولكنها لم تقلق عما سيسأل الفتاة فهو إن سألها عن ليندي فيربان سيلقي الجهل التام.. فلا وجود هنا إلا لليندي جورغنز التي تعيش مع أبيها وزوجته في مزرعة نائية، في عالم بعيد كثيراً عن عالم الأناقة والأزياء والعارضات الفاتنات.

لن أسمح بهذا.. لن أسمح لشيء بإزعاجي.. لقد عانت بما فيه الكفاية، وكم تساءلت لماذا وهي تحب أريك إلى حد الجنون كادت تستسلم لغيره.

احتاجت إلى أشهر طويلة لتعرف أن ما كانت تشعر به نحو أريك لا

يزيد عن انجذاب عابر إلى رجل جذاب، ولكن هذا الاكتشاف أشعرها بازدراء النفس وقلّل من احترامها لنفسها. ولقد قلقت لولا كثيراً لأن ابنة زوجها الجميلة لا تهتم بالرجال أبداً وكان هذا هو السبب الذي جعل ليندساي تقبل دعوات جايمي سوربيل البيطري المحلي، فقد أرادت إرضاء زوجة أبيها وهاهي بينهما الآن صداقة هادئة.

امتد الطريق الطويل أمامها بين شجيرات الآس والصنوبر.. أما وراءها فكانت تقع الأراضي الحكومية التي كانت يوماً مستنقعات ضخمة، جففت الآن وسيجت وزرعت بالأعشاب.. خلف هذه كان هناك منطقة برّية، ثم رانجيتاتاو، أو البوابة إلى الجنة.

أبعدت ليندساي قدمها عن دواسة السرعة لتخفف سرعتها، فارتفع الغبار في الهواء الساكن.. من الآن فصاعداً ستصبح الطريق أفضل قليلاً. على كلا الجانبين كانت النباتات والأشجار بيضاء من الغبار.

إلى الجنوب ترتفع تلال قديمة من الكثبان الرملية الصلبة، وهي تحمي رانجيتاتاو من الغرب والجنوب. كانت التلال التابعة للمزرعة معروفة لأنها مزروعة بالصنوبر الذي يضفي مظهراً غريباً على المناظر.. فلون الصنوبر الأخضر يتناقض مع لون شجيرات الزيتون المغطاة الآن بأزاهير تبدو كالثلج فوق أوراق قاتمة.

نظرت ليندساي إلى المرآة الخلفية، فرأت عبر الغبار شكلاً يدل على وجود سيارة أخرى خلفها.. عبست.. فليس في هذا الاتجاه غير مزرعة رانجيتاتاو..

قال جون بمرح وهو يلتفت إلى الوراء: سيارة؟

ـ أجل حبيبي.. سيارة.

أحست بقشعريرة ارتياك.. لكنها سرعان ما كبتتها.. من الغباء السماح للقاء الصباحي المزعج أن يوتر أعصابها، فلا شك أن السيارة القادمة هي لصديقة ما للولا، أو لسائح يريد أن يرى ما هي رانجيتاتاو وموقعها.

ما هي إلا بضعة أميال أخرى حتى اختفت غمامة الغبار الأخرى خلفها.. وفكرت: إنها سيارة سائح وجد أن الطريق سيئة للغاية فعاد أدراجه.

في أعلى قمة التلة التي تفصل رانجيتاتاو عن العالم، أوقفت السيارة وسارت مع جون على الطريق الصغيرة وعيناها تجوبان المنظر الذي تحبه.

كان شعب الماووري القدماء الذين سمّوا هذا المكان بالبوابة إلى الجنة، يعرفون ماذا يفعلون. فقد كانت «رانجيتاتاو» جوناً صغيراً كالبحيرة فيها خليجان يقتحمان البحر ويشكلان الحواجز بينها وبين المحيط الهادىء الشديد الاضطراب.. داخل البوابات، أربعة شطئان رائعة تشكل ميناء تكاد دائرته تكتمل، كل شاطىء مفصول عن الآخر برأس أرضي منخفض الانحدار، مكسو بعشب أخضر أو بالشجيرات الشائكة.. في الأيام السالفة كانت كل تلة منزلاً محصناً لقبيلة من قبائل الماووري الذين كانوا يعيشون هناك.

إن شاطئين منها ما يزالان ملكاً لأحفاد تلك القبائل.. أما الشاطئان الآخران، إضافة إلى ألفي فدان من الأراضي الصالحة لتربية المواشي، فأملاك توماس جورغنز، التي تزرعها العائلة منذ ثلاثة أجيال، وربما في يوم ما ستكون لجون.

إلى هنا جاء توماس بزوجته الأولى، وهنا ولدت طفلتهما الوحيدة وهنا أمضت الزوجة سنوات في عزلة وسخط حتى هربت في النهاية إلى أوستراليا إلى حيث المسارح والأزياء والحياة الصاخبة التي اشتاقت إليها كثيراً بحيث لم تدرك كم كانت ابنتها مشتاقة إلى رانجيتاتاو وجمالها البرّي المرسوم إلى الأبد في قلبها. الأم والابنة أحبتا بعضهما بعضاً.. لكن حاجاتهما كانت متباعدة. ولم تفهم رونده فيربان مدى تباعدهما.

ارتدّ جون ينظر إلى الخلف ويشير:

ـ هذه هي تلك السيارة.

قطع هدير المحرك سكون المكان فارتد رأسها إلى الوراء، ولم تدهش البتة لدى بروز اللاندروفر أمام نظرها.

في البدء ذعرت وكادت تهرع نحو السيارة لكنها تراجعت.. سيظنها مجنونة وسيرتاب في الأمر وهذا ما لا تريده وأخذت ترجو الله أن يكون هنا ليتأمل المناظر.

لاح على وجه هذا الرجل الطويل ما يدل على أنه قصد النزل بها.. ترجل من السيارة وسار إلى حيث تقف منتظرة. تململ جون إنما بدون خوف.. أما ليندساي فتوترت أعصابها.

نظر إليها نظرة إعجاب وقال:

ـ صباح الخير.. آنسة جورغنز.. أليس كذلك؟

تحركت عضلة في عنقها الذهبية الحريرية:

ـ أجل ليندي جورغنز.. كيف..؟

ابتسمت لها عيناء الرماديتان القاتمتان.

ـ لقد سألت السيدة الشابة الرقيقة في الكاراج.

ردت: «ومن.. أنت»؟

مد يده: «دونڤان راسمسون».

وضعت يدها بيده. في هذه المرة لم يلثم يدها ولم يكشف وجهه عن أي تجاوب كما حدث في المرة الأولى.. بعد مصافحة سريعة سحبت يدها.

مد جون يده:

ـ صافح يدي أيضاً.. أنا جون.

مد يده إلى يد جون مبتسماً، فر جون الابتسامة. لاحظت ليندساي نظرة الإعجاب على وجه أخيها الصغير، بقلب غائر.. ما الذي في هذا الرجل حتى ينجح مع النساء والأولاد؟

أشارت عليها أخلاقها الحميدة أن تخلع النظارة، لكن غريزة

حماية النفس أمرتها بتركها وفازت الغريزة.

سألت بأدب: هل لي أن أساعدك؟ كما ترى، الطريق تنتهي عند بوابتنا على أقدام التل.. أتريد رؤية أبي؟

رفع حاجبه الأسود المستقيم:

ـ أنا مجرد سائح.. ولكنني أحس بالفضول تجاه الفرق بين مزرعة وأخرى.

وأشار بيده من أرض المزرعة الخضراء إلى المراعي الجافة وراء حدودها.

قالت والحذر يبقي لهجتها باردة:

ـ بإمكان أبي أن يشرح السبب.. ولكن الأرض الملاصقة هي أرض شعب الماووري وكانت الحكومة قد منعتهم من فعل شيء بأرضهم أما مؤخراً فسمحوا لهم بذلك فكان أن مضوا قدماً وسرعان ما تبدو أرضهم كأرضنا.

هز رأسه تفهماً، ونظر إلى المنظر الواسع أمامهما ثم ارتدّ ليواجه البحر.

ـ وكأن الطقس العاصف لا يصل إلى هنا أبداً.

قالت بأدب: لكن الطقس يسوء أحياناً في الشتاء.

قال جون: «لديّ قارب.. هناك في الأسفل».

سأله دونڤان: «أتتقن السباحة؟»

ـ أجل.

قالت ليندساي: «تعلّم السباحة قبل أن يتعلم المشي».

ـ وأنت؟ هل كنت تسبحين قبل أن تتعلمي المشي؟

كان السؤال عفوياً، ترافقه ابتسامة أخرى وكأنه لا يفكر بشيء إلا في العبث مع أقرب أنثى منه.

قالت باختصار: أجل.

وأخذت يد جون استعداداً للمضي في طريقها.

سمعته يقول متعجباً:

ـ لا أرى أية مشاريع هنا.

هزت كتفيها: لن يسمح أبي بأية مشاريع في أرضنا، أما الأراضي الأخرى التي يملكها شعب الماووري فلم يفعلوا شيئاً فيها لأنهم منعوا من ذلك ولكنهم مثلنا.. هذه موطنهم، مكان سكنهم. إنها برّية جميلة.. تصورها ملأى بالفنادق في كل مكان.. سيتدمر سكونها وستصبح «سيرفرز» أخرى!

ـ وهل كنت يوماً في سيرڤرز؟

فرقع السؤال كالسوط في الهواء الساكن.. وكادت ترتجف.. ارتفعت عيناها تحت عدسات نظارتها السوداء لتلقي النظرة الباردة في عينيه.. ارتجفت الكذبة على شفتيها.. لكن غريزتها حذرتها، فأجابت ببرود:

ـ أجل.

ـ وهل استمتعت هناك؟

أطبقت لوهلة أسنانها على شفتها.. ثم قالت بتردد رهيب:

ـ أجل.. لقد أحببتها.. إنما ليس كهذا المكان سيد راسمسون.. رانجيتاتاو لا تشبه أبداً «غولدكوست».

في هذا الوقت صاح جون مسروراً:

ـ هذا أبي..!

ارتدا فرأيا توماس جورغنز ينزل من قمة التلة على صهوة جواده، وكلبان يركضان أمامه لبحيبا جون. اضطرت ليندساي إلى القيام بواجب التعارف فكان أن دعا توماس دونڤان لزيارة المنزل.

قال، وعيناه الزرقاوان صافيتان بعيدتا المرمى كالبحار:

ـ رأيتك من أعلى التل هناك، وتساءلت عما تفعل هنا.

قال دونڤان بسهولة: «كنت أستمتع بالمنظر».

استقبلته لولا بالترحاب ولمّا سمعت إطراءه لها توردت.. ولكن

ويا للغرابة لم تعد ليندساي تحس بالخوف من أن يعرفها.. نعم هي لم تنس رنة صوته ولكن الواضح أنه لم يعرف صوتها البتة.. ولماذا يتذكر امرأة رآها في سهرة عابرة؟

قالت للولا في المطبخ:

ـ اذهبي وحادثيه.. سأحضر الغداء.

بدت لولا مترددة:

ـ إنه جاهز تقريباً.. من حسن الحظ أنك خبزت الخبز هذا الصباح ليندي! أوه وهناك كاسترد بالخوخ.. إنه طعام ريفي.

وهذا يعني أن دونڤان حتى وهو بالجينز العادي يبدو شخصاً مميزاً.. ضمتها ليندساي بسرعة:

ـ ريفي أم لا.. أنت طاهية ماهرة، وسيحب طعامك. والآن اذهبي وامرحي معه قليلاً.

علق الضحك في حلق لولا:

ـ تعرفين طرازه أليس كذلك؟.. لكنني أراه يفضل الاستمتاع بمحادثتك.

ـ اصنعي معي معروفاً، لا تذكري أمامه أنني كنت عارضة أزياء.

هزت زوجة أبيها رأسها موافقة، ونظرت إليها نظرة ماكرة:

ـ أنت تعرفين أمثاله فعلاً، أليس كذلك؟

ـ هذا ما أخشاه.. فلنواجه الحقيقة.. أراهن أن ما من امرأة قالت له يوماً «لا» في حياته، بمن فيهن أمه.. ولا شك أنه مدلل.. بصراحة لا أريد أن أضطر إلى صدّه.

قالت لولا ضاحكة:

ـ في هذه الحالة، سأغير هذا السروال وأرتدي ما هو ملائم.. لقد رأيت نظرة الإعجاب في عينيه وهو ينظر إليك.. ماذا يفعل هنا؟

ـ لا أدري.

ـ هل هو الفضول؟ لا.. لا أظنه ممن يتسكع.. فلديه شخصية

قوية يصعب تصور ما هي!

ـ لقد رأيته في البلدة.

لكن لماذا تطوعت بهذه المعلومات لا تدري، ضحكت المرأة الأكبر سناً:

ـ ربما لحق بك.

ـ صعب ذلك.

لكن حين غادرت لولا المطبخ، عبست ليندساي.. أيعقل.. لا.. الفكرة سخيفة.. لا يحتاج دونڤان راسمسون إلى ملاحقة المرأة لأن النساء يلاحقنه، بسبب سحر شخصيته وبهاء طلعته.. أوه.. وبسبب ماله أيضاً.

حاولت وهي تقطع الخضار للغداء أن تركز تفكيرها على الأسئلة التي كانت تتلاحق في رأسها.. ولكنها لم تنجح في الرد على أي سؤال.

لم يعرفها بالتأكيد.. فقد كانت منتبهة إلى تعابير وجهه ولم يبدُ أنه عرفها أبداً. لا ريب ولا شك في أنه يراها ابنة هذا المنزل فقط.. ولو استطاعت لولا إبعاد توماس عن ذكر تلك السنوات التي قضتها في عرض الأزياء لما تذكرها.. ولكن والدها كان يفضل لو تستخدم ذكاءها بدل جسدها.. لقد تناقشا في مسألة دراسة المحاماة فعرض عليها أن يساعدها في تحقيق حلمها.. لا.. توماس ليس فخوراً بمهنتها ولن يشير إلى هذا أبداً.

مررت يداً فوق جبهتها الرطبة.. إنها شديدة الحرارة.. نظرت من باب الفرن فوجدت أن الفطائر تكاد تجهز.. حضرت المائدة في غرفة الصباح، ثم ذهبت إلى غرفتها لترتدي فستاناً ولتضع لمسة أحمر شفاه خفيفة، ولكنها قررت ألا تفعل ما قد يجذب اهتمامه.

الشيء الذي يؤلمها في علاقتها بدونڤان راسمسون هو خوفها من خسارة احترامها لذاتها.. فالفتاة التي تصرفت بتهور بين ذراعيه

أرعبتها..

ظهرت لولا فجأة:

ـ فلنتناول الطعام في الخارج. الطقس حار جداً.

كانت الطاولة على الشرفة كبيرة ومستديرة، وهذا يعني أن لا مجال للهرب من نظرات دونڤان.. وكان من دواعي التوتر الشديد لليندساي أن تراقبه وهو يذهل الجميع ويسحرهم.

أجبرت نفسها على الأكل.. فلن تُظهر أمام أحد مدى توترها ولكنها لم تستطع التصرف بمرح كالعادة، وهذا يعني أن توماس ولولا مذهولان من هدوئها الغريب.

حين انتهى الطعام نظفت الطاولة وأعدت الشاي. عندما سألته عما إذا كان يفضل القهوة ابتسم بكسل وأدب:

ـ لا.. أبداً. فالأوستراليون يشربون الشاي أيضاً.

سأله توماس:

ـ هل أنت في إجازة هنا؟

ـ أجل.

سألت لولا:

ـ وهل تقضي عطلتك في مكان محدد؟

ـ أتجول فقط.. هذا جزء من البلاد مجهول بالنسبة لي. لا أظن أنني رأيت ساحلاً أجمل منه.. مع ذلك لم يسبق أن سمعت به وأرى أنكم لا تتحمسون لمجيء السواح..

أسند توماس ظهره إلى كرسيه: «لا نكاد نراهم».

من بين الأشجار المحيطة بالمنزل، كانت مياه الخليج تلمع كنسيج حريري أزرق وفضي.. من هنا يمكنهم رؤية شاطئين فقط.. كل هلال رملي منها يبدو ورديا دافئاً تحت أشعة الشمس، ويبدو قاتماً أكثر حيث ارتفع المد هذا الصباح..

جذبت ليندساي اهتمامها إلى الحديث الدائر، ورأت توماس يشير

إلى عدة مواقع في أملاكهم:

ـ صيد السمك غير مشهور كما في الأماكن الأخرى.. ما زال بإمكانك الخروج في المركب والعودة بما يكفي من السمك لك ولجيرانك.. ما زالت أسماك «أبو سيف» وغيرها من أسماك المحيط الضخمة تأتي إلى هنا. إن هذا المكان للعطلات فريد بروعته ففيه تقل الأمطار وحوله تكثر الخلجان.

قال دونڤان معلقاً: لكن هذا لا يعني أن الطقس مناسب لك.

هز توماس رأسه:

ـ لدينا مزرعة أخرى في الداخل، فوق التلال، وهي تساعدنا.

ـ لماذا السياحة قليلة ما دام لهذه المنطقة كل هذه الميزات؟

فتح توماس يديه يقول بحبور:

ـ الساحل كله ملك خاص أو أرض للماووري، ونحن بعيدون جداً عن أي مكان وطرقاتنا تحبط عزم الجميع.

ـ أجل.. لاحظت هذا.

اتجهت نظرته الغامضة إلى وجه ليندساي التي سيطرت على تعابير وجهها خشية أن تكون قد كشفت شيئاً من القلق الذي تشعر به.. فحدسها ينبئها بأن وراء اهتمام دونڤان دافعاً خفياً.

قال توماس ببطء:

ـ حسناً.. إن لم يكن لديك خطط محددة، فلماذا لا تقيم هنا بضعة أيام لترى ماذا يمكن أن نقدمه لك؟

عادت نظرته إلى وجه ليندساي.. هل رأى خوفها؟ وهل أدرك أن ارتعاش أصابعها اللاإرادي الذي ظهر وهي تضع فنجان الشاي الذي تمسكه كان سببه الدعوة التي أطلقها أبوها؟

تردد الصوت العميق البارد: «هذا لطف كبير منك».

قالت لولا بسرعة:

ـ ابق معنا سيد راسمسون وستتمتع بحياتنا الهادئة.. ليس

الأوستراليون وحدهم المشهورين بضبط النفس.

أشرقت ابتسامته الدافئة:

ـ سأتمتع كثيراً.. شكراً لك.

وقفت ليندساي مصدومة حائرة وكأن توماس ضربها. ثم قالت بصوت رتيب غير عادي:

ـ يكاد جون ينام.. سأضعه في فراشه.

حملت الصغير إلى غرفة نومه فسألها:

ـ هل سيبقى الرجل؟

ـ أجل حبيبي..

ضحك بحرارة، وقبلها، ثم قال متنهداً:

ـ جيد.. سأريه مركبي.

كان كل هذا جيداً.. ولكن لم يكن فيه عزاء لليندساي! أحست وكأن لولا وتوماس خاناها.. ما الذي دها والدها؟ ولماذا دعا غريباً إلى منزله؟ قد تتحدث لولا عن الضيافة، ومع أن لا أحد يستطيع اتهام توماس بالفظاظة إلا أنه ينتظر عادة قبل أن يدعو الناس إلى رانجيتاتاو.

إنها تلك الفتنة الجهنمية.. تلك الهالة التي يبثها دونڤان بكل كفاءة.. لا يستطيع أحد أن يصدق أنه قاس كالجلد المدبوغ.

صاحت وقد صدمتها فكرة أخرى:

ـ آه! يا لهذا الإرياك!

ستضعه لولا في غرفة الضيوف وهي تجاور غرفتها، رباه! كيف ستتمكن من الراحة وبينها وبينه جدار لا تتعدى سماكته أربعة إنشات.

لن تتمكن من النوم ليلاً من شدة الإصغاء، وهذا يعني أن أمامها شيئاً واحداً تفعله.

٤ ـ شكراً لا تكفي

خرج توماس وضيفه دونڤان لإلقاء نظرة على المزرعة.. ولم يساعد توازن ليندساي في شيء أن تكتشف أن دونڤان فارس ماهر.. الواضح أنه تعلم ركوب الخيل على يد رعاة المواشي، فقد كان يعتلي صهوة الجواد بمهارة وكأنه ولد على ظهر خيل.

قالت لولا وهي تقف في المطبخ مع ليندساي:

ـ لماذا غرفة الجدة الكبرى.

عصرت ليندساي فوطة التجفيف وكأنها عنق شخص ما:

ـ لأنها أكبر حجماً.. إنه بحاجة إلى مساحة يتحرك فيها.

لم يكن رداً شافياً، ولكن لولا الحبيبة تركت الأمر.

ـ هل انزعجت لأن أباك دعاه؟

وضعت الفوطة فوق قضيب النافذة المعدني وردت:

ـ لا.. بالتأكيد لا.

ـ جيد، أنا مسرورة لهذا.. فعليك الاعتراف بأنه رجل ساحر.

أوه.. أجل.. إنها تعرف هذا خير معرفة.. وتعرف مدى سحره.. فهو قادر على سلب الضحية القدرة على الفرار والمقاومة بنظرة واحدة أو بالحضور. أجل ساحر آسر هما أدق كلمتين لوصفه.

قالت بصوت مرتفع:

ـ سيكون شيئاً من التغيير على أي حال.. إنه مخلوق من عالم آخر تقريباً.

ـ وهل تركت ذلك العالم مكرهة؟ لم تخبريني شيئاً.. كنت مسرورة برؤيتك إلى درجة الأنانية.. خطر ببالي مرة أو مرتين أنك مشتاقة إلى الفتنة والإثارة، ولكنك استقريت هنا بشكل طبيعي وكأنك سعيدة بعودتك.

ـ كنت سعيدة.. وما زلت. فأنا أحب رانجيتاناو.. كنت ليلياً أبكي شوقاً إليها.. حياتي في أوستراليا كانت مثيرة..

أضافت بخجل غريب:

ـ في الواقع، يمكنك القول إنني استخدمتكم والمزرعة كملجأ لي.. كنت بحاجة للعودة إلى هنا..

هزت زوجة أبيها رأسها، وفي عينيها اللطيفتين الشفقة.

ـ هذا ما تصورته! إنه رجل على ما أعتقد، هذا ما يحصل عادة.. وهذا هو سبب مجيئي إلى هنا كذلك.. ثم التقيت والدك وتعلقت به ولم يعد يهمني أحد سواه.. قد يحدث الشيء ذاته معك.. إن جايمي سوربيل رجل مثير للاهتمام.. يقول توم إنه لم يحب الماشية هكذا من قبل!

ابتسمت ليندساي وهزت رأسها نفياً:

ـ جايمي لطيف.. وأنا متعلقة به.. إنما ليس في علاقتنا ما هو رومانسي.

ـ أمر مؤسف.. إنه في إجازة الآن.. أليس كذلك؟ أين هو؟

ـ يمارس رياضة التسلق في الألب الجنوبي.. سيعود بعد أسبوع.

هزت لولا رأسها.. إنها معجبة بجايمي الذي كانت تتفحص نظراته إلى ليندي.. إنه متعلق بليندي.. يجب قتل كائناً من يكون الرجل الذي وضع هذه النظرة المتألمة في عيني ليندي.. لكن ربما كان من الضروري لها أن تحرق جناحيها بالنار قبل أن تتعلم معنى الحب الآمن الذي وجدته هي مع توماس جورغنز.. ستستعيد مع الوقت عافيتها مما عانته من أوهام، وسيحصل جايمي ساعتئذ على فرصته،

أجل، مع الوقت قد تحب ليندي جايمي.

أدركت ليندساي المنحى الذي سارت فيه أفكار زوجة أبيها فضحكت، وقالت مازحة:

ـ توقفي عن محاولة تدبير زوج لي.. لديك تلك النظرة المراوغة التي تخيف أي رجل يراها! أنا سعيدة كثيراً بحالي.

كانت ضحكة لولا عميقة.

ـ حسناً عزيزتي.. أعدك ألا أحرجك بوجود جايمي. هل نأخذ الولدين إلى الشاطىء حين يستيقظان؟ إنه يوم جميل وأريد الحصول على المزيد من الشمس قبل حلول الشتاء.

ـ ماذا ستحضرين للعشاء؟

ـ فكرت أن أحضر الطعام قبل ذهابنا إلى الشاطىء.. سأطهو روستو لحم الغنم على الطريقة الكشميرية، مع الزنجبيل الأخضر والكمون والمنبلات.. وسأشوي البطاطا وأحضر سلطة خضراء.. وأنت يا ابنة زوجي الحلوة العزيزة عليك تحضير شراب الليمون الحامض الذي سنبرده في الثلاجة.. ولكن حباً بالله لا تنسيني إياه!

وتشاركتا الضحك.. من المرح العمل معاً في المطبخ الكبير الذي حوله توماس إلى مطبخ عصري لزوجته الأولى الإنكليزية الجنسية.

بدا الشاطىء يرزح تحت أشعة شمس العصر، بلونه الوردي والعاجي.. وكانت أمواج خفيفة تتكسر على الرمال.. وفيما كانت لولا تمد البُسُط تحت الظل اللطيف لشجر «يوهوتوكاوا» كانت ليندساي تضع المهد المحمول، وتلاعب الطفلة.

قالت ليندساي وهي تخرجها من المهد:

ـ أحبك أيتها الصغيرة.. أيتها الساحرة..

واستمر الهذر الذي لا معنى له حتى نادى جون مطالباً المساعدة في بناء قصر من رمال، وأخذت لولا ابنتها بمزيد من الحب.

قال جون بجد:

ـ ليس هذا النوع من الأصداف..

التقط صدفة لولبية الشكل:

ـ مثل هذه حبيبتي ليندي.

ـ لكن حبيبي جون.. ليس هناك الكثير منها أما تلك المسطحة فثمة أكوام منها.

لكن جون كان عنده فكرة محددة عن تزيين قصره الرملي فقال كمن يسرّ بسرّ:

ـ سنجدها.. تعالي!

أمسكت اليد الرطبة المليئة بالرمل وركضت معه نحو الصخور.

ارتفعت أصواتهما وهما يفتشان أنواع الأصداف التي لا حصر لها، كان يسألها وهي تعلق وأحياناً كان يصيح بفرح لمعرفته اسم صدفة نسيت اسمها ليندساي، فيضيفها إلى أصدافه المتعددة الألوان.

رفع صدفة فضية في يده:

ـ ما اسم هذه؟

ـ إنها «الباوا» الفضية.. اسمها الأصلي «هيهيوا» أيمكنك لفظها؟

لفظ الاسم بحذر: «هي.. هي.. وا».

ـ ولد ذكي!

كانت الحياة هنا ترضي حاجة كبتتها سنوات البعاد الطويلة وقال جون:

ـ هذا أبي.. والرجل.

كان الجوادان يخوضان حافة الماء، بكل ثقة.. وقفت ليندساي وهي تقول لنفسها إن عليها الصبر يومين آخرين فبعد يومين يرحل دونڤان راسمسون وترحل معه ذكرى حياتها الماضية.

لماذا يجب أن تكون حساسة هكذا وكأنها تحمل طوقاً حول عنقها؟.. إنه رد فعل على وجوده.

قالت:

ـ ها قد جاء الرجلان.

نظرت لولا إلى ما وراء ليندساي، وصاحت:

ـ أوه.. أوه.. لا!

لم يلحق جون بليندساي بل نسي كل التعليمات الصارمة وهرع نحو الرجلين الراكبين.. تأوهت لولا.. ثم هبت واقفة شاحبة الوجه:

ـ توم يركب ذلك الجواد الأحمق «غولد».

ارتدّ الجواد الأسود، نحو جواد دونڤان.. في تلك اللحظة تذكر جون تعليمات أبيه الصارمة فتوقف خائفاً.. بدا جسده الصغير ضعيفاً هشاً بشكل درامي أمام الجوادين الضخمين.. صعق المشهد الجميع فتوماس راح يقاوم ليلوي رأس جواده وجون لزم مكانه ولكنه ما زال قريباً من الخطر.

ثم انطلق الجواد الآخر إلى العمل.. فبسرعة وبراعة فارس قدير انحنى دونڤان يرفع الطفل ويضمه إليه وهو يطلق العنان لجواده مبتعداً عن الجواد الأسود الغاضب الصاهل وعن راكبه الذي كان العرق ينصبب منه.

تنهدت لولا:

ـ أوه.. الحمد لله!

اقتاد دونڤان جواده وكانت ذراعه القوية تلف جسد جون ولسانه يحادثه بهدوء بحيث تلاشت نظرة الخوف الأبيض عن الوجه الصغير.. احتاجت ليندساي كل قواها لتهرع إليهما ولتتلقى جون بين ذراعيها.. شدته بقوة ثم تركته يركض إلى أمه، ورفعت نظرها إلى دونڤان:

ـ شكراً لك.

أدركت للمرة الأولى أن الشكر لا يكفي في بعض الأحيان أبداً.

قال وهو يرفع صوته لتسمعه لولا:

ـ لم يكن في خطر في الواقع.. لقد بدا المشهد أسوأ بكثير مما كان حقاً.. لقد توقف حالما اهتاج جواد والدك.

انخفض صوته وأصبح مشبعاً بالسخرية:

ـ عندما تخافين تصبح عيناك زرقاوين قاتمتين.. أتعرفين هذا؟

ـ أنا.. أجل.. سبق أن قيل لي هذا.

إنه يربكها.. ابتسم ساخراً، وقال ببرود:

ـ إن زوجة أبيك بحاجة إلى مساعدة على ما يبدو..

كان من دواعي سرورها أن ترتدّ عنه إلى حيث التقطت لولا المهد المحمول، وتقدمت متهاوية نحوهما وجون يتمسك بيدها..

قالت ليندساي:

ـ هاتِ.. سآخذه منك.

قال دونڤان: لا.. بل سآخذه أنا.

أعطت لولا المهد ومحتواه الثمين إلى دونڤان.

قال لها: سيدة جورغنز.. لماذا لا تأخذين جون وتركبا الجواد؟ سأحمل الطفلة، أما ليندي فستجمع الأغراض.

ـ شكراً لك لإنقاذك الصبي! جون؟

قال جون بصوت كئيب مخنوق:

ـ شكراً لك.. كنت سخيفاً مزعجاً.

لامست يد دونڤان الشعر الأشقر:

ـ كنت فعلاً هكذا.. لا بأس لأنك لن تكرر هذا مرة أخرى، أليس كذلك؟

ـ لا.. أبداً.

وكان رده صادقاً جاداً بحيث ضحك الجميع وخف التوتر.

تمكن توماس أخيراً أن يسيطر على الجواد الأسود، وتقدم نحوهم وفي وجهه توتر ولهفة. صاح: «هل كل شيء على ما يرام؟»

ساعدت ليندساي لولا في صعود جواد دونڤان وردت عليه:

ـ بخير!

ـ إذن سأقود هذا الأحمق أمامكم أولاً.

انطلق الجواد الأسود صعوداً وكأن كل الكلاب في الجحيم تلاحقه.. عبست لولا وهي تتمسك بلجام الجواد ولحقت به ببطء ومعها جون.. أما ليندساي فبقيت وحدها مع دونڤان الذي راح يؤرجح المهد وينظر إليها. طوت البساط وجمعت الأغراض في سلة خاصة.

أحست أنها متوترة فأجبرت نفسها على أن تتذكر أنها بالنسبة له ابنة صاحب المنزل لا تلك الفتاة التي التقاها في إحدى السهرات.

طاف طير نورس فوق الرؤوس صائحاً فأصدرت سالي من المهد حركات وأصواتاً متسلسلة.. الواضح أن دونڤان يؤثر فيها حتى والصغيرة في هذا العمر. كان يبتسم للطفلة لكن عندما دنت ليندساي منه رفع رأسه ينظر إليها وعيناه تطوفان بقدّها الرشيق.

سألها: كم عمرك ليندي؟

هزت كتفيها:

ـ اثنان وعشرون عاماً سيد راسمسون.

قال وهما يسيران معاً:

ـ أنا في الحادية والثلاثين وهذا يعني أنني أصغر بكثير من أن تحشريني بحزم مع جيل والدك.. هل يزعجك أن تناديني دون؟

كان يعرّضها لسبب ما إلى قوة سحره الكاملة.. ربما لا يستطيع مقاومة وجود امرأة!

ـ لا.. بالتأكيد لا.

ـ وماذا تعملين لإعالة نفسك؟

ـ أساعد لولا.. إنها مريضة.. وأنت سيد.. دون.. ماذا تعمل؟

ضاقت عيناه لحظة: «أنا رجل أعمال».

ـ صناعي؟

ابتسم لها: «لا تبدين معجبة برجال الأعمال.. هل آذاك أحدهم يوماً؟»

لم تعد تستطيع إبقاء ابتسامتها القسرية فقد نقل المهد إلى يده

الأخرى بحيث لم يعد يفصل بينهما.. بدا وكأنه يقصد شيئاً من الحميمية.. فتحركت مبتعدة قليلاً ليبقى بينها وبينه قدم على الأقل.. إنها لا تريد أن يكون بينهما شيء..

منذ زمن بعيد شقت أول عائلة من آل جورغنز طريقها إلى حيث يقف المنزل الآن وذلك عبر البحر الذي كان وسيلة الانتقال الوحيدة في تلك الأيام. كانت المنطقة الشمالية منطقة برّية لا طرقات فيها.. ولم تتغير أشجار «البوهوتوكاوا» القديمة قدم الزمان، لكن حين خفت ظلالها، زرعت أشجار أخرى، تكاد لا تقوى على الوقوف في وجه الرذاذ المالح والريح.. الآن أصبحت تلك الأشجار باسقة بينها زنبق النيل الأزرق.

شكراً لأنامل لولا الخضراء فبفضلها نمت دالية «فرنجيباني» في زاوية الشرفة المسقوفة.. وحافظ حب لولا للألوان على اخضرارها حتى في الشتاء.. كانت تسقى من خزان يُملأ بمياه المطر، وهو لا ينضب حتى في أسوأ أيام الصيف.

توقف دونڤان وهما يمران بالبوابة الصغيرة.. أخذ للحظات ينظر إلى ما حوله ويملي نظره من المنزل القديم.. راحت تراقبه عن غير علم منه.. بدا وسيماً ورجلاً بكل ما للكلمة من معنى.. فهو مفعم بالصحة والرجولية.. بنيته رائع وكتفاه عريضتان ويداه قويتان وخصره ضيق.

قالت بشيء من التوتر: «سالي جائعة».

استدارت عيناه تأسران عينيها.. وقال ببرود:

ـ إذن من الأفضل أن ندخلها إلى المنزل.

كانت أمسية غريبة.. طهت لولا عشاء مميزاً تناولوه في غرفة الطعام بأوان من الفضة والبورسلان الجميل كانت إحدى هدايا زفاف الجدة الكبرى.. وجرى الحديث بيسر وكأنهم يعرفون بعضهم بعضاً منذ سنوات.. تألقت لولا التي كان دفئها ولطفها واضحين بحيث لم

يعد من المستغرب أن تستقر عينا دونڤان عليها دائماً.. أما توماس فقد أثاره ذكاء ضيفه ومارس ظرفه الجاف.. وأما ليندساي فقد جلست كالحالمة، ولكنها كانت حذرة كثيراً فرفضت المشاركة وصبّت نظراتها على طعامها.

كان دونڤان هو محور الأمسية وقد أثارهم سحره وذكاءه واهتمامه.. إنه يفتنهما كما فتنها.. ويحيك رقيته السحرية حولهما حتى بدوا عضوين في دائرته السحرية.

يا له من مصدر قوة لرجل أعمال! تصورت مجلس الإدارة ومعاركه التي سرعان ما تصبح سهلة عندما يستخدم قدرته الخارقة.. وقد ساعده عقله الحاد كثيراً.

بعد العشاء، جلسوا جميعاً في غرفة الجلوس تحت نور مصباح واحد، وتحدثوا عن كل شيء حتى شهقت لولا واعتذرت:

ـ سالي ما تزال تستيقظ في الخامسة صباحاً.

ابتسمت ابتسامة فيها ندم.

أمام باب غرفتها قال توماس لابنته:

ـ غداً سأصطاد شيئاً من السردين للقطط، فهل أوقظك عندما تستيقظ الصغيرة؟

هزت رأسها مبتسمة له.. فهذه عادة سنوية تتذكرها منذ أيام طفولتها الذهبية.. التجذيف البطيء في القارب ورمي الشبكة ببطء ثم القفز في الماء لمساعدة أبيها في جذب أطراف الشبكة.. أما ما تبقى من العملية، فإخراج السمك الفضي الصغير الذي تفضل عدم التفكير فيه وكانت تنقذ ضميرها بالتفكير في أن الطبيعة قاسية..

* * *

٥ ـ هل تؤمن بالحب؟

في عتمة الفجر الرمادية، كانت فكرة المياه العميقة هي التي أقنعت ليندساي بارتداء البيكيني ووضع كنزة صوفية فوقه.

وخشية أن يوقظا الضيف، تسللت مع أبيها من المنزل ونزلا إلى حيث سقيفة القارب.. رفع أحد الكلبين رأسه وأخذ يئن وهو يحرك قيده الحديدي. فأمره توماس: «إهدأ بلاكي!»

ـ لِمَ لا نأخذه معنا؟

ابتسم: «تعرفين ماذا يفعل حين تصل الشبكة إلى الشاطىء.. ستكون لولا قد عادت للتو إلى النوم ولن يعجبها أن تستيقظ على وابل من العواء».

ـ مسكين بلاكي.. وهل تعود لولا إلى النوم؟ إنها تستيقظ في السادسة والنصف دوماً.

ـ تقول إنها لا تنام.. ولكنها تبدو نائمة فعلاً..

نظر إلى السماء بعين خبير ثم أردف:

ـ نهار رائع جديد.. بإمكاننا الاستفادة من بعض المطر.

شبكت ذراعها بذراعه:

ـ آه! أنتم الفلاحون! لا تكتفون أبداً!

كانت سقيفة القارب تحت صخرة منخفضة بارزة مغطاة بأغصان شجرة «بوهوتوكاوا».. أما القارب فمطلي باللون الأخضر، والذي يهدد والدها منذ سنوات بتغييره..

بعيداً قليلاً كان المركب التجاري الصغير الأحمر والأبيض يهتز فوق الماء.. وفي مكان غير بعيد يقف لانش يدل امتداده الكبير على أنه خاص للمياه العميقة والصيد فيها، وهو إحدى المتع التي يبالغ توماس جورغنز في التمتع بها.

فجأة خرجت الشمس من فوق بوابة الخليج الجنوبية وأصبح لون أشعتها الشاحب أحمر ذهبياً بعدما كان ورديا شاحباً.. وبدأت غيوم الصباح تتبدد.

للمرة الأولى منذ أشهر شعرت ليندساي بفرح شديد وحاد يكاد يكون مؤلماً.. طافت ضحكتها القلبية في الهواء، فسمع توماس الضحكة وشكر ربه بصمت. ثم قال ساخراً وهو يجر القارب من الرمال إلى الماء:

ـ حسناً.. مهلك الآن!

شق القارب الماء بصمت راسماً دائرة في الخليج الصغير أما الشبكة السوداء فنزلت ببطء في الماء.. كان توماس واقفاً في المياه حتى ركبتيه يرفع الشبكة عالياً، وفي الوقت المحدد وضعت ليندساي المجذافين من يديها، وقفزت إلى الماء تشد طرف الشبكة الآخر وبعد ذلك سارت وإياها نحو الشاطىء.

قال توماس برضى:

ـ أعرف أنك تكرهين هذا الجزء من الصيد.. فاذهبي لإحضار القارب.

كانت ليندساي ترتدي تحت الكنزة قميصاً قديماً غير مزرر، أطرافه مربوطة فوق خصرها.. خافت أن تنزعه، فغطست إلى المياه الباردة المنعشة تضربها بيدين قويتين حتى وصلت إلى القارب الذي كان يتقدم نحو الشاطىء. حين رمت نفسها إلى داخله تأرجح بقوة لكنه لم ينقلب.

سمعت توماس يسأل: «كيف هي المياه؟».

ردت من فوق كتفها:

ـ ممتازة..! كالحليب الدافىء!

إنها نكتة قديمة بينهما، فأجاب توماس كالعادة:

ـ ومن يرغب في السباحة في الحليب الدافىء؟

ـ هاك! لقد انتهيت.

وضع دلوين من البلاستيك على الشاطىء، ثم أخذ يشد أطراف الشبكة معاً:

ـ خذي الشبكة وضعيها في السقيفة أما أنا فسأضع السمك في الثلاجة.

غسلت ليندساي الشبكة بالمياه العذبة ثم نشرتها على غصن لتجف وبعد ذلك جرّت القارب فوق الرمال، وقررت بعد نظرة إلى البحر الدافىء اللون، أن من الجيد أن تعمل على رفع مستوى شهيتها للفطور.

خلعت القميص ثم راحت تختال على المرفأ الخشبي ماشية مشية عارضة الأزياء الخبيرة.

ثم وقفت وقفة مميزة قبل أن ترمي نفسها من فوق الحافة بطريقة أتقنتها منذ كانت في الثامنة.

لم تكن المياه قد دفئت، ولكنها في هذه المرة كانت مستعدة لبرودتها وخرجت منها تشهق منتصرة وتدفع شعرها إلى الخلف.

وجدت نفسها تحدق في وجه دونڤان الغاضب، الذي بدت عيناه القاتمتان كالصوان، باردتين فوق فم مشدود بقسوة:

ـ أوه!

غطت وجهها بيديها وارتدت عنه وكأنه يتهمها بجرائم شائنة.. لقد شاهد ذلك الاستعراض الغبي، وقام عقله المنطقي بالتحليل وإيجاد الرابط.

لكن عندما كانت ترتد إلى الوراء أمسك كتفيها وهزها.. كانت

أصابعه تضغط بألم على العظام الضعيفة تحت بشرتها..

قال بقسوة: «ظننتك وقعت».

نظرت إليه.

ـ ليندي.. لا تنظري إليّ هكذا! أنا آسف لأنني أخفتك.. لكنني رأيتك تقعين فخلتك لن تصعدي من تحت المياه أبداً.

عضت شفتها:

ـ أوه.. أنا.. أنا.. أسبح تحت الماء.. ولدي..

ـ رئتان قويتان جداً.. لا داعي إلى الشرح.. خلتك غرقت!

إذن لم يتعرف إليها.. عادت إليها ثقتها بنفسها وابتسمت:

ـ آه! لا يغرق فرد من أفراد أسرة جورغنز أبداً.. فنحن أشبه بالسمك.. ألم تكن تعرف هذا؟

قفزت السخرية إلى وجهه، وقال بتركيز:

ـ لا بل حورية بحر كلمة أدق.. فحين تنظرين إلى أي رجل بهذه الطريقة تغرينه ليلاقي حتفه.

ازداد امتقاع وجنتيها فبذلت جهدها لتبدو فتاة ريفية كما يظن، وقالت:

ـ أوه.. تغازل بشكل رهيب.

تلوت لتحرر نفسها من قبضته ثم انحنت فوق المياه كالدلفين وغاصت لتظهر على بُعد ياردات، وتلك الابتسامة ما تزال على شفتيها. كان عقلها يفكر بلا انقطاع.. ألا يستطيع مقاومة أية امرأة جميلة؟ أم لعل الشرارة الكهربائية التي ظهرت في لقائهما الأول ما تزال موجودة؟

سبحت إلى المرفأ.. كان الدرج بارداً ورطباً من ندى الصباح.. مع أن الضباب الخفيف المتصاعد فيها يظهر مدى قوة الشمس المشرقة.. دفعت ليندساي شعرها عن وجهها ورفعت رأسها، ثم التقطت قميصها وربطته. ثم فكرت أن عليها أن تتأكد دائماً من ارتداء ملابس مناسبة لئلا يظهر فجأة دونڤان كما حدث الآن.

آه! تباً للقدر! فهو المسؤول عن هذه الصدفة التي جعلتهما يتلاقيان ثانية... لقد تلاشى بوصول دونقان كل الهدوء والأمان اللذان تمثلهما «رانجيناتاو» لها وتشك كثيراً في أن يعود هذا المكان ذلك الملجأ الآمن الذي كانت ترجوه لنفسها. لقد تمكنت من طمس وجود ليندساي عارضة الأزياء وغرقت بسعادة في دور ليندي.

لكن وصول دونقان جعل هذا مستحيلاً، فقد اضطرها وصوله إلى تذكيرها بعارضة الأزياء وهذا ما يزعجها.

ارتدت بنفاد صبر وسارت على المرسى باتجاه المنزل. وقبل أن تصبح في منتصف الطريق لحق بها وعلى كتفيه منشفة.. حين نظر إليها، كان قد عاد إلى نظرته المرح الذي أدهشها وأربكها.

مرت الأيام وهذا المزاج المرح معه ما يزال موجوداً، فتساءلت عما إذا كانت رانجيناتاو تملك سحراً خاصاً بها، فقد بدا رجل الأعمال القاسي الفؤاد بعيداً.. كان دونقان يتصل كل ليلة بأوكلاند، يتحدث نصف ساعة تقريباً على حسابه الخاص.. ولكنه النشاط الوحيد الذي كان يقوم به. الواضح أن امبراطوريته قد تسير بدونه وقت الضرورة.. ترى ألم يعرفه والدها؟ فتوماس واسع الاطلاع، كثير القراءة، ولا يمكن إلا أن يكون قد عرفه، ولكنه لم يشر إلى هذه المعرفة.

قالت لولا برضى:

ـ إنه يحافظ على ترتيب غرفته ففراشه دائماً مرتب، وثيابه في مكانها من الخزانة وليس عليّ إلا نفض الغبار.

هزت ليندساي رأسها وهي التي بذلت جهداً لتنظيم الأمور لئلا تدخل غرفته:

ـ هذا أفضل له.. هل ستذهبون حقاً إلى بركة الزنابق غداً؟

ـ أجل.. يقول توماس إن موسم زنابق الماء سينتهي، وأنا لم أرها هذه السنة.. لماذا.. ألا تريدين الذهاب؟

لا تريد بالتأكيد، لكنها لا تستطيع قول هذا للولا:

ـ الطريق إلى هناك طويلة.. وأظنها شاقة على سالي.

ـ سنأخذ المهد المحمول، وكثير من الحفاضات، وشبكة لحمايتها من البعوض.. إن كان أحد سيشعر بالتعب فهو جون لأنه عازم على ركوب جواد.

إنها كأخيها وضعت على ظهر جواد قبل أن تتعلم المشي.. وتستطيع أن تتذكر مثل هذه الرحلات في طفولتها وتصميمها على التصرف كالكبار.

وقالت مبتسمة:

ـ أوه.. سيتدبر أمره. وإن تعب يستطيع الركوب مع واحد منا.. هل تفضلين أن أقود اللاندروفر؟

ـ لا تكوني سخيفة.. لا أريد أن أحرمك من الإشراق أمام دونقان!

ـ الآن لا تبدئي بعمل «الخاطبة».

أحست بالراحة لدى سماع ضحكتها، فأغرقتا بالضحك معاً.

أردفت ليندساي:

ـ إنه عابث.. ولكنه ينسحب بسرعة إذا وجد الجد عند شريكته.. رجال كدونقان لا يتزوجون إلا من أوساطهم.

قالت لولا جادة:

ـ لا يبدو لي عابثاً.. إنه ساحر ومرح قليلاً، أما الزواج.. حسناً من أي وسط هو؟

ـ وسط الأغنياء الأثرياء.. نوع من الثراء كان في العائلة منذ أجيال.

ـ ليس والدك فقيراً.

ابتسمت ليندساي وعانقت زوجة أبيها بمحبة:

ـ أنت محبوبة.. أحبك لتواضعك.. لكن فلنضع هذه المسألة جانباً.. نحن نعرف قصة الملك الذي تزوج من المتسولة.. ولكن هل تظنين أن أقاربه وأصدقاءه رحبوا بها؟ أو أنها كانت سعيدة في القصر

الكبير المزدحم؟

لكن لولا كانت تبدي العناد الشديد حين تريد:

ـ أظنك تعانين من تكبر غريب مارسه أحد عليك.. : فليس هناك من وسط لا تشرفينه. أنت جميلة، مشرقة كوردة، ولا تخافين العمل.. هذا عدا قلبك الحنون المحب..

وارتدت لتخفي الدموع التي ترقرقت في مآقيها.

قالت ليندساي بصوت مرتعش:

ـ أوه.. يا إلهي.. لا تكوني هكذا.. سيغضب أبي إن شاهد الاحمرار في عينيك وسيؤنب ابنة الزوج الشريرة.

استعادت لولا رباطة جأشها:

ـ إنها زوجة الأب الشريرة أيتها البلهاء.. وأعرف أنك تكرهين الشكر، ولكنني لن أنسى لك معروفك أبداً.. كنت في الأشهر الماضية نصيرة قوية.. والآن فلنقرر ماذا سنأخذ معنا غداً.. سنأخذ الخوخ والبطيخ والتفاح وما تبقى من دجاج ولحم عجل.. إضافة إلى ذلك الخبز الرائع الذي تخبزينه وماذا بعد؟

ـ ما رأيك بلحم غنم بارد وسلطة؟ فإن كان الطقس جيداً فلن نحتاج إلى طعام ساخن.

وكان الطقس جيداً.. في هذا اليوم حصل جون على ما يريد، فامتطى صهوة جواده «البوني» الصغير بانتصار واعتمر قبعة لتقي رأسه حر الشمس وارتدى سروالاً من الجينز.

كانت بركة الزنابق في أعلى التلال.. منذ سنوات طويلة وقبل أن تُغرس أشجار الصنوبر كانت البركة تستخدم كمستوعب إضافي للماء.. ولا يعرف أحد من وضع فيها أول جذور الزنبق المائي، مع أنهم يظنون أنها جدة ليندساي، ففي كل ربيع كانت الأوراق الخضراء تنتشر فوق المياه الراكدة الهادئة، وفي الصيف ترتفع الكؤوس البيضاء العطرة نحو الشمس..

كانت الطريق إلى هذا المكان جيدة ومسلية. ففي البدء مروا بحقول واسعة غناء ولما ازداد حر الشمس دخلوا بين الصنوبر إلى الممرات المقطوعة الأشجار وتابعوا طريقهم بهدوء والأغصان تتدلى بينهم..

انخرطت هي وهو في نقاش عن موسيقاهما المفضلة، أما توماس وجون فتأخرا قليلاً وكان الجو دافئاً ساكناً لا مجال للنسيم أن يجد طريقه بين الصنوبر.. تحت الأغصان القصيرة نما عشب طيب الرائحة وأعشاب أخرى. بين الحين والآخر كانت حشرة التنين الطائر تمر بهم مصدرة أزيزها المعروف.

وكان يرافقهم ثلاثة كلاب تشق طريقها بدون صوت، في إحدى المرات هاجم إحداها طائر طار إلى عمق الغابة صارخاً فتركزت عيون الكلاب برجاء يائس على توماس الذي صاح آمراً:

ـ إلى الوراء.

فأطاعته وأذعنت.. إلا أكبرها الذي أبدى رأيه بالقرار بأن أدار ظهره للفارس.

ضحكت ليندساي ورفعت نظرها إلى دونثان، وقالت:

ـ يقال إن بإمكان المرء الاعتماد على الكلاب بالكامل.. لكن ما من أحد قال هذا لبلاكي!

نظر إليها دونثان مفكراً:

ـ الواضح أن هذه الحياة تناسبك.. ألا ترغبين أبداً في الخروج إلى العالم وفعل شيء آخر؟

ـ ليس في أيام كهذه.

ـ لكن في أيام أخرى؟

جمدت تعابير وجهها فرفعت مطيتها رأسها وأدارت أذنها نحوها. ربما شيء من توتر الفارسة انتقل إليها.

قالت متعمدة المراوغة:

ـ أوه.. يسأم كل إنسان الأشياء.. ألا يحدث هذا لك؟

اشتد صوته قسوة:

ـ بلى بالتأكيد.. ولكن عملي يقتضي مني استخدام كل موهبة وجدارة أمتلكها.. وهذا ما يوسّع أفقي إلى أقصى الحدود.

ـ وأنا لست هكذا؟

اهتزت الكتفان العريضتان بحركة عدم اكتراث خفيفة ولكن عينيه كانتا تطالبانها بإنهاء المراوغة:

ـ بلى.. إذا كنت مثل لولا التي تجد الاكتفاء الكامل في منزلها وعائلتها.. لكن هم وإن كنت مخلصة لهم ليسوا عائلتك.. ولن يكون هذا المكان منزلك إلى الأبد.

استدارت ليندساي فوق سرجها ودفعت قبعتها عن جبينها الذي تفصد فجأة بالعرق.. ثم التفتت إلى الأمام مجدداً:

ـ سأفكر في عبور ذلك الجسر حين أصل إليه.

ركزت بصرها ما بين أذني جوادها مصممة على عدم النظر إلى دونڤان الذي سمعته يقول:

ـ بكلمات أخرى أنت ترفضين مواجهة الواقع.

ـ لا أظن أن هذا شأناً من شؤونك.. لكنني أستطيع أن أتزوج رجلاً من هذه المنطقة.

ـ آه.. أجل، البيطري المحترم.

في صوته رنة لم تستطع فهمها.. قسماته المشدودة لا تفصح عن شيء.. بعد لحظات أردف:

ـ أخبرتني لولا أنه الآن في إجازة. أليس كذلك؟ يتسلق الجبال..

أجابت بشراسة بعيدة كل البعد عن الحكمة:

ـ أجل.. هذا صحيح.. إنها هواية محترمة.. تتطلب من المرء شجاعة فائقة.

عارضها رأيها برقة:

ـ لدى من يحتاج إلى اختبار قوة احتماله مراراً، بذور قلق متجذرة.

ارتدت إليه بسخط، فضحك ورفع يده:

ـ لا.. لا تقولي ما هو على طرف لسانك.. فأنا أعرف.. لقد كنت أشارك في سباق السيارات.. في البداية كانت مجرد هواية أحاول فيها إثبات شجاعتي.. وفيما بعد استمتعت بها كرياضة.. ولكن حاجتي لاختبار نفسي كانت موجودة.. وما إن أدركت ما أفعل حتى توقفت.

ـ لماذا؟

ـ لأنني أصبحت أعرف نفسي.

دفعها الفضول إلى معرفة المزيد عنه.

ـ وماذا حصل؟

ابتسم بقسوة:

ـ لم أعد أشعر برغبة.. أو حاجة لاختبار شجاعتي.

ـ إذن ذهب عنك القلق.

ـ وهل يذهب القلق أبداً؟ في أعماق كل إنسان، ذلك الطفل الوليد الذي يتوق إلى الحماية التي لا تؤمنها له سوى أمه.. عندما نكبر نظن أننا سنجد ذاك الحب المتفاني في فرد ما من أفراد الجنس الآخر.. ولكن النضوج يتم عندما نعرف أن مثل هذا الحب ولّى إلى الأبد، ولن يتكرر.. فكل ما يجب أن نأمل به هو إيجاد رفيق محب، صديق محب، والله يعلم كم هم نادرون.

ارتاعت: «آه! ما هذه المرارة التي تعتمل في داخلك؟ ألا تؤمن بالحب أبداً؟»

ـ أتقصدين تسارع دقات القلب واندفاع الدم في الشرايين؟.. أوه أؤمن بهذا.. لكن ما هذا هو الحب.. يا فاتنتي الحلوة.

مال نحوها فأمسك معصمها على حين غرة يشد بإصبعه على

نبضها، ثم ابتسم عندما شعر بتسارع النبض. أردف: أنيس فكر.. لكنه ليس ما تعنيه بالحب.. أليس كذلك؟ ما تريدينه مزيج من الواقعية والخيال:

«ما يموت هو ما ليس متساوياً
لو أن حبنا كان واحداً
لكان الحب متشابهاً
فلا أحد يذوي ولا أحد يموت!»

تفوه بالأبيات الشعرية بطريقة جميلة وكان صوته مشبعاً بالسخرية والقسوة لذا لم تستطع تحمل النظر إليه، ولكنه لم يكن قد انتهى إذ تابع قول الشعر:

«أحبك حتى أعمق الأعماق
أحبك حتى آخر الآفاق..»

هذا كله كلام فارغ ليندي.. غذاء غير مادي لعقل يتضور جوعاً إلى الحقيقة.. وأنا لا أفهم هذا.

لسبب مجهول آلمها الازدراء البادي في صوته، فأجبرت ابتسامة على شفتيها وردت عليه بخفة:

ـ تذكرني بشعر آخر:

«يولد الحب مع الخيال ويتناسل
بالتجاهل والترقب ينمو.
تدمره المعرفة، وفي أفضل الأحوال،
يضيع في اللحظة التي تمتلكه فيها».

قال والدها من خلفهما:

ـ تتباريان في إلقاء الشعر؟

قال جون الحبيب متوسلاً بلهفة:

ـ أخبريني شعراً ليندسي!

ـ ما رأيك بالشعر عن الدب والجبال؟

أصر جون على أن يغني الجميع.. فشاركهم ويا للدهشة دونثان في غناء الشعر.. فجأة فكرت في أريك وكريستيان وهي المرة الأولى التي تفكر فيهما منذ أشهر طويلة.

عادت بتفكيرها إلى الوراء فوجدت صعوبة في تذكر العذاب الذي شعرت به بسبب خيانة أريك لها.. وتساءلت أيضاً عما إذا قدم دونثان المال والخبرة لأريك ليدعم عمله.

ما إن وصلوا إلى البركة حتى كان اللاندروفر هناك في الظل، والبسط مفروشة تحت الأشجار إلا بساطاً واحداً ترك تحت الشمس فلعل أحدهم يريد الجلوس في أشعتها. كانت لولا مرتدية سروالاً قصيراً، وبلوزة مكشوفة وهي تلاعب سالي وظهرها مستند إلى شجرة «كواهي».. عندما رأتهم لوحت لهم وحملت الطفلة إلى البركة تراقبهم يقودون الجياد إلى المياه لتشرب.

سألت: «هل كانت رحلة جيدة؟ أأنتم على استعداد لاحتساء العصير البارد؟»

صاح جون:

ـ أنا مستعد! لكن بعد أن يساعد أبي جوادي.

ـ طبعاً حبيبي.

كان الوقت ظهراً.. وفيما اهتم الرجلان بالجياد بدأت لولا وليندساي بتحضير الطعام..

قالت ليندساي وهي تغسل يديها ووجهها في البركة:

ـ لقد كان جون رائعاً طوال الطريق، ولازم ظهر جواده كالفارس الأصيل.

وضعت لولا الطفلة على الأرض وأعطتها لعبة حمراء.

ـ جلده سميك.. عندما حاول توماس للمرة الأولى وضعه على ظهر جواد كاد يغمى علي.. ولكن عليّ أن أعترف أنها كانت فكرة صائبة.. لقد أخبرني أنك تعلمت الركوب والسباحة قبل المشي.. ولا

أرغب أن تغلبي أولادي! منطق كريه، أليس كذلك؟ ولكنه منطق نجح في إقناعي.

ـ لا أظن أن والدي حاول المقارنة بيننا.

ـ نعم صحيح.. كان يشير فقط إلى أن العيش في مكان مثل رانجيناتاو يحتاج إلى أولاد قادرين على العناية بأنفسهم بأكبر قدر ممكن.. وهو على حق.

ضحكت ليندساي بصوت مغر دوى في الهواء الثقيل الحار. قالت مداعبة: «أجل.. حتى أفضل الرجال يبرهنون أحياناً أنهم على حق».

ثم أطرقت برأسها بعدما رمتها لولا بتفاحة وقالت مهددة:

ـ انتظري حتى تتزوجي لأنك عندئذ لن تجدي ما هو مثير للأعصاب أكثر منهم. هلا جلبت علبة الثلج الحار من السيارة؟ إنها تحت أثواب السباحة والمناشف.

* * *

٦ ـ ممَ تهربين؟

لم تذق قطُّ طعاماً أفضل من هذا.. تناولوه بشهية قرب البركة الساحرة ذات السطح الساكن، بين الحين والآخر كان الهواء يبعث عبيراً زكياً..

بعد التهام آخر خوخة وشرب آخر قطرة عصير باردة واحتساء آخر قطرة قهوة، وُجد جون نائماً عند زاوية البساط.

وقف دونڤان الذي مدّ يده إلى ليندساي:

ـ تعالي وأريني بركتكم.

إن هذا لطف منه، فهذا سيمكن لولا من العناية بابنتها دون الاضطرار إلى الابتعاد. كانت تفضل مشاركة جون في قيلولته ولكنها تقبلت اليد الممدودة إليها وعانت لأن أصابعها وقعت في يده. انطلقا إلى حيث تلتقي الزنابق بالعشب المتشابك الغني بالزهور البيضاء.

قال دونڤان فجأة:

ـ منظر غريب! غابة صنوبر، وثلاث أشجار سرخس، وبركة زنبق يعود تاريخها إلى زمان قديم، ونداء طيور يمتزج مع صياح طير الدرّج.

ـ إنه طير «التوي» آكل العسل المحلي الشبيه بالوروار.. انظر إنه فوق شجرة الكواهاي.. هو ذلك الأزرق والأخضر الريش.

ـ هل في البركة أسماك؟

ـ لا.. إلا إذا اعتبرت الأسماك الصغيرة أسماكاً ولكن لدينا الكثير من سمك الإنكليس.

ـ مع ذلك تسبحون فيها؟

ـ ليس في البركة نفسها.. بل هنا.

فوق البركة هناك بركة أخرى أصغر حجماً لا زنابق فيها وقعرها رملي.. كانت بحجم بركة سباحة عائلية، مستديرة الشكل تقريباً، المياه فيها تبدو باردة.

ضحكت ليندساي برقة:

ـ ها قد تكلم الأوسترالي الرقيق! طينة النيوزيلنديين أقسى من طينتكم!

برق التحدي في عينيه وقال متمتماً:

ـ أتظنين هذا؟ فلنرَ.

حملها بسرعة يدليها من فوق حافة البركة، فضحكت:

ـ أنت.. إن أوقعتني فسوف..

ـ ماذا سوف تفعلين؟

إنها مزحة.. لا لن يكون.. يكون.. صبيانياً فيرميها في الماء! ولكنها رأت التصميم على وجهه القريب كثيراً من وجهها.

قالت تهدد بصوت منخفض:

ـ سأوقعك معي..

أرسل جسدها إشارات مذعورة أنبأتها بأنها في خطر.. وأن رميها في الماء البارد طريقة مُثلى لتبريد حرارتها.

استدار بها حتى أصبحت سالمة فوق الأرض:

ـ في هذه الحالة.. سأطالب بتعويض.

عرفت حتى قبل أن يحني رأسه ما هي نيته، لكن عقلها الغبي لم يرسل الرسائل الصحيحة بالسرعة الكافية.. تركته يعانقها ولكنها استعدت لهجومه.

وجدت ذراعاها بطريقة ما طريقهما إلى عنقه ولكنها وضعتهما هناك حين هددت بأن توقعه معها في البركة.. الآن أصبحت يداها

اللتان كانتا معقودتين وراء عنقه بشدة، مبسوطتين.. وسرعان ما راحتا تتسللان إلى شعره الكث الناعم.

سمعته يتأوه تأوهة ملأتها بالسرور.. كانت تبتسم حين رفع رأسه قليلاً ونظر إليها نظرة غريبة طويلة كانت فيها عيناه ثابتتين لا تكتشفان شيئاً.

لامس التورد بشرتها بدفء وتوهج فبدت فجأة ضعيفة وأجمل من ذي قبل.

قال: «كل هذا رائع جداً.. ولكن الرجل لا يقدر أن يحمل فتاة كبيرة مثلك وقتاً طويلاً».

وأظهر مدى قوته بجثوه على ركبة واحدة ووضعها على الأرض وكان بذلك يعطيها الفرصة لإيقاف هذا العبث.. فهذا ما هو الأمر عليه. إنهما شخصان منجذبان إلى بعضهما بعضاً كانجذاب الإبرة إلى المغنطيس.

أنذرها عقلها وطلب منها الابتعاد عنه، ولكن يدها خانتها إذ راحت تلمس الخط الممتد من معصمه حتى مرفقه.. كانت تعابير وجهها غارقة وكأنها تستوعب الإحساس به وبقوته.

سحب نفساً عميقاً ثم ما لبث أن عاد إلى تطويقها بشغف.

كان رعد قلبه إثارة أعطت الوقود إلى خفقات قلبها التي تسارعت كالمجنونة.. ثم فجأة أفاقت إلى نفسها فقالت:

ـ لا.. لا دونقان.. أرجوك!

تركها فجأة.. فتلوت مبتعدة وأنفاسها تخرج حادة من رئتيها.

حين جمعت الشجاعة الكافية، استدارت فوجدته جالساً وذراعاه على ركبتيه ورأسه بينهما، وكتفاه منحنيتان.

أحست بسعادة لأنها رأت مدى تأثيرها فيه. إنه شعور غريب هذا الذي بينهما.. وهو يشعر مثلها بهذا الشيء الغريب بينهما.. ذلك المد الجارف من المشاعر التي أخافتها لأنها لم تستطع السيطرة عليها.

وكأنما لمسته نوع من السحر الأسود، تجردها من الكبرياء.

رفع رأسه والتقط نظرتها الخضراء الغاضبة، فابتسم ابتسامة ملتوية ساخرة، وقال في محاولة لتخفيف التوتر المشحون بينهما:

ـ لديك شحنة قاتلة.. فهل نتفق على عدم تكرار هذا العناق مرة أخرى؟ لأنني في المرة القادمة لن أستطيع التوقف، هذا إذا كان هناك مرة أخرى..

وارتجفت فجأة لأنها أدركت كم اقتربا من أن يكشف أبوها أمرهما.. فقد تعالى صوته فوق خرير المياه، وما هي إلا لحظات كان يصعد الضفة المعشوشبة الصغيرة التي تفصل البركتين. الستار الوحيد الذي كان يخبئهما هو ستار من أشجار كواهي الرقيقة الأغصان.

الحمد لله لأنها ودونڤان كانا جالسين وبينهما مسافة لا كما كانا قبل قليل متعانقين.. توماس مزارع لا وقت لديه للتصرفات اللاأخلاقية وكم سمعته يصف بازدراء تصرفات نجم موسيقى أو سينمائي خليع.

ليتأكد، طافت نظرته بهما معاً بتساؤل حاد جعلها ترتجف.. لكنه قال:

ـ جون استيقظ.. لذا من الأفضل أن نستكشف المكان بسرعة إذا كان هذا ما تريدان أن تفعلاه.

هبت ليندساي وفي صوتها رنين مزيف حتى على أذنيها:

ـ أجل.. فلنستكشف.

لقد فسد مرح اليوم.. مع ذلك لم يتغير شيء بما في ذلك تصرفات دونڤان الذي بقي مرافقاً لطيفاً يعاملها وكأنها صديقة أخته.

ولكن وهم في منتصف طريق العودة وبعدما ابتعد توماس مع جون قليلاً.

ـ والدك متأكد أنني تحرشت بك وأنك خذلتني بقسوة.

ضحكت وهي تعي السخرية في القول:

ـ هكذا أفضل.

وكان هذا كل شيء.. وفي الأيام التالية لم يذكر أي منهما ما حدث بينهما.. وبدأت ليندساي مرة أخرى تصب اهتمامها على دفن هذه المشاعر الجديدة التي يولدها فيها هذا الرجل.. ساعدها دونڤان الذي كان ودوداً كثيراً معها بحيث وجدت نفسها تطمئن لوجوده.

المشكلة أنها باتت تعي وجوده أكثر فأكثر حتى استحوذ على أفكارها وعقلها.. ولكنها استطاعت تجاهله وقد ساعدها على ذلك عودة جايمي الذي صحبها إلى العشاء في بلدة قريبة تبعد عشرين ميلاً على الساحل.. واضطرت إلى تقديمهما إلى بعضهما بعضاً.. الرجل الذي كاد.. لا.. الرجل الذي كاد يقبل بالعرض الذي قدمته له.. وذلك الذي يعاملها بحنان واحترام جديرين بكل ما فيها من براءة.

لسبب ما كانت تتوقع أن يكون دونڤان مستيقظاً حين عادت قبل منتصف الليل بقليل. لكنها وجدت المنزل مظلماً، صامتاً كالقبر، وبارداً.. في الخارج كانت جواهر الليل تبرق في السماء ولكنها لم تشعر بجمالها.

خلعت ملابسها ودخلت إلى الفراش تحس ببرد شديد جعلها بعد عشر دقائق تشغل البطانية الكهربائية.. لكنها استيقظت بعد ثلاث ساعات مبللة بالعرق.

عانت من الإحباط، خاصة وأن جايمي قال لها إنه ذاهب في اليوم التالي إلى منطقة وانغاري للقيام بجولة، الأمر الذي يعني أنها مضطرة للذهاب بدونه إلى حفلة تقيمها عائلة «سوفتهيد».

سألتها لولا حين أخبرتها في الصباح التالي:

ـ لماذا الحفلة في وسط الأسبوع؟

ـ إنه عيد مولد ساندي الحادي والعشرين.. وهي تؤمن أن على المرء الاحتفال بأعياد الميلاد في موعدها الصحيح.

ـ فليساعد الله من هو مضطر للذهاب إلى عمله في الصباح

التالي.. أوه توماس.. جايمي مسافر اليوم، أيمكن أن تأخذ ليندي السيارة مساء الغد؟

عضت ليندساي على شفتها.. كانت قد سمعت صوت دخول الرجلين، ولسبب ما لم تكن تريد أن يسمع دونڤان أنها ذاهبة إلى الحفلة بمفردها.

على أي حال لم يكن هناك مجال لتجنب الأمر فعندما سألها توماس أخبرته بجولة جايمي.

ـ حسناً.. من الأفضل أن تأخذي السيارة.. أرى أن هذا جزء من مؤامرة لإقناعي بشراء سيارة أخرى.. ولكنني لا أدري متى استخدمت هذه السيارة لآخر مرة.

قال دونڤان بصوت بارد: «لماذا لا تستقرض سيارتي؟»

ساد صمت قصير، وبدأت ليندساي بسكب اللحم والبيض في أطباق التقديم.. ثم قالت لولا بصوت مثير:

ـ لدي اقتراح أفضل من هذا.. لماذا لا تذهب إلى الحفلة مع ليندي دونڤان؟ فمن الأفضل أن يكون معها شريك.. وأظن أن ساندي وزوي سيحبان التعرف إليك. إنهما شخصان مضيفان كثيراً! وحفلاتهما مرحة دائماً.. أليس كذلك ليندي؟

حسناً.. ماذا يمكنها أن تقول؟

وافقت بصوت بارد: «حفلاتهما جميلة جداً».

ووضعت طبقاً أمام توماس والآخر أمام دونڤان الذي قال:

ـ لا أستطيع التطفل هكذا.

ضحكت لولا وبدا المكر على وجهها:

ـ لا، لن ينزعجا أبداً.. الواقع أنك ستسدي لليندي خدمة.

بدت التسلية في صوت دونڤان:

ـ أوه.. لماذا؟

توقفت ليندساي عن العمل في طعام الفطور، ونظرت باستغراب

إلى زوجة أبيها:

ـ لأن مالينا ڤالي ستكون هناك.. إنها هنا في إجازة، وهذا يعني أنها تستريح بين عملين.

ارتجفت ليندساي:

ـ أوه.. لا!

تذكرت مالينا ڤالي.. خاصة صوتها المرتفع الحاد الذي لم يكن يترك فرصة إلا ويذكر فيها مساوىء ليندساي.

سأل دونڤان باستمتاع: «ومن هي مالينا ڤالي»؟

ضحكت لولا ثم راحت تسكب عصير البرتقال لجون في الكوب.

ـ بدأ كل شيء في المدرسة.. لقد تحولتا إلى عدوتين لدودتين هناك.. لكن الزمن لم يشف مالينا. وفي المرة الأخيرة التي التقيا فيها حاولت مالينا انتزاع جايمي منها، وكادت ليندي تفقد أعصابها وهذا شيء صعب حدوثه.

قالت ليندساي باختصار:

ـ إنها تسخر مني.. فنحن لم نكن نحب بعضنا بعضاً في المدرسة، وفي إحدى المرات دفعتها إلى جرن تطهير الخراف من الجراثيم! فادعت أمام المعلمة أنني غششت في الإملاء مع أنني كنت أقرأ كتاباً ليس إلا.. نعم لم تصدقها المعلمة.. ولكن العداء استمر وكأننا وسط خلاف دموي.. إنها مجنونة!

قال دونڤان: «هذا يسوي الأمر إذن.. يجب أن ألتقي مالينا ڤالي وإن لم تقبلي برفقتي فسأذهب ولو بمفردي».

وماذا تستطيع أن تفعل؟

ـ سأتصل بساندي إذن.. مالينا جميلة جداً أيضاً، إذا كانت الدمى تعجبك!

أطلق توماس ضحكة خافتة على التعليق الحاد، وابتسم دونڤان.. ابتهجت ساندي سوفتهيد لأن رجلاً جديداً سينضم إلى حفلتها،

وسألت بسرعة على الهاتف: «أهو وسيم؟»

ـ كل الوسامة.. وكأنه ملك للجمال.. أسمر رائع.

سحبت ساندي نفساً بإثارة:

ـ عظيم! لكن الأهم أهو ذو شخصية؟

دفع شيطان ما ليندساي إلى رفع رأسها لمراقبة الطيف الذي دخل إلى الردهة لتوه، وقالت مفكرة:

ـ أوه.. لديه شخصية مميزة.. الآن، كيف أستطيع وصفه لك؟ إنه متعجرف على ما أعتقد وكأنه خرج من القصص الرومانسية.. مع أنه..

تلاشى صوتها لأن دونثان أحنى رأسه وأمسك رأسها ليلثم جبينها.. عندما استطاعت التخلص منه، كانت متوردة مشرقة تتقد عيناها، أما ساندي فكانت تطالب:

ـ ماذا يجري ليندي؟ ليندي..؟

أدارت له ظهرها، وأردفت بعد لحظة:

ـ لا شيء.. لا شيء أبداً ساندي.. لكنني فوجئت بشيء.. هذا كل ما في الأمر.

لم تصدقها ساندي:

ـ أوه.. هذا كل ما في الأمر إذن..؟ ما الذي فاجأك؟ هل هو البطل الرومانسي، كما أرجو؟

ـ لا.. لا.. بالتأكيد لا.

لم يكن قد تحرك قيد أنملة من ورائها.. كان واقفاً على بعد إنشات منها ولكن عندما شدها بلطف لتستريح عليه، فقدت كل سيطرة على أحاسيسها.. وقالت متلعثمة:

ـ اسمعي ساندي، يجب أن أذهب الآن.. أراك غداً مساءً.. إلى اللقاء.

وضعت السماعة من يدها بقوة.. والتفتت ترفع عينين تتطاير

منهما الشرر ولكنها رأت بريق السخرية في عينيه.

قال بهدوء ولكن بدون أن يخفي الخطر الكامن في كلامه:

ـ لا تتحديني.. ماذا كنت تتوقعين ليندي؟ أن أتركك تنفذين بفعلتك؟

لا.. تعرفه خير معرفة.. فهو لم يصل إلى ما هو عليه بتجنبه للتحديات.. وهو إلى ذلك يحكم عقله في كل شيء. لكنها تشك في أن يتمكن من مقاومة هذا النوع من الإغواء الذي تمثله له.

تعمدت دفعه، وشدّ الخجل بشرة وجهها وهي تقول بصوت جاف:

ـ لا.. لا أعتقد أنك ستتركني.

لكن عندما هم بالابتعاد، ضحك بهدوء وأمسكها بحزم لطيف من مرفقها.. وقال ممازحاً:

ـ لا تكوني درامية هكذا! يعجبني أكثر ذلك الإحساس المرح وروح النكتة.. إنها تبرز كالبرق في وقت غير متوقع ثم تتراجع.. وكأنك خائفة.. فهل أنت فعلاً خائفة؟

تمكنت بجهد من الرد بخفة:

ـ منك أنت؟ لا.. لست خائفة.

ـ بل حذرة.. محترسة.. فما الذي لا يعجبك فيّ ليندي؟ لا تقولي «لا شيء». لقد أحسست بشيء ما يصطدم بي عندما رأيتني للمرة الأولى.

تحركت يده برقة لتمسك معصمها حيث استراح إبهامه بلطف على النبض الضارب هناك.

قالت بحذر: «وجدتك.. مخيفاً».

ـ لماذا؟

تململت في وقفتها قلقة لأنها تخشى أن تقول له الكثير ولكنها تعرف أنه أذكى من أن لا يلاحظ مراوغتها. وأردفت متمتمة:

ـ أنت.. أنت أربكتني.. ولم يعجبني هذا.

ـ بل أنت خائفة.. ليس مني فقط، بل مما أمثله لك.

قالت بسرعة وهي مقطوعة الأنفاس: «لا أعرف ماذا تعني».

ـ بلى تعرفين. فلست غبية.. لماذا تخجلين من أي نوع من التورط؟

ردت بشجاعة: «إنها الأسباب نفسها التي تخجل أنت منها».

ابتسم: «أوه.. أشك في هذا.. أترين.. اعترفت بهذا أم لم تعترفي.. أنت متورطة، متورطة معي أكثر من تورطك مع البيطري الوسيم..».

ارتدت إلى الوراء غاضبة فأردف:

ـ لا.. لا.. لا تهربي.. فأنت بارعة في الهروب ولكن الفرار لن يوصلك إلى أي مكان.. فهو لا يوصل أبداً.. كان ذلك سلاح أمك؟ لقد هربت.. هربت من الحياة التي كرهتها هنا.. هربت من أي نوع من التورط العاطفي..

صاحت ليندساي:

ـ أنت لا تعرفها.. ولا أظن أن أحداً ذكرها لك هنا.. دعني وشأني، لست بحاجة إلى تحليلاتك النفسية.. أتظن أنني مريضة نفسياً لأنني لم أنكبّ على وجهي من أجلك؟ حسناً.. إعرف، أيها المجنون بالعظمة، أن والدتي...

تطعت يده التي وضعها على فمها كلامها..

ـ أعتقد أن علينا متابعة هذا الموضوع في مكان آخر.

وأشار برأسه إلى أن شخصاً ما يتحرك أمام المنزل.

ـ أنا لا أريد.. لا.. أوه.. دعني وشأني!

لكن يده على ذراعها حثتها للتوجه إلى الشرفة الأمامية.. ومنها إلى الدرج فالطريق الضيق المفضي إلى الشاطىء.. وما إن أصبحا بعيداً عن أنظار من في المنزل، حتى ارتدت إليه ويدها مرفوعة.

أمسك معصمها بسرعة وقال بكسل:

ـ لا.. أيتها القطة المتوحشة. استخدمي هذه الطاقة الزائدة في التسلق.

رفع معصمها إلى فمه ولثم قبلة على أصابعها المكوّرة. ثم حثها، بطريقة أو بأخرى، على صعود تلة مرتفعة كان سكان شعب الماووري يستخدمونها كحصن.. كانت الخراف قد التهمت العشب هناك فأصبح المكان أشبه بمنصة صغيرة تطل على منظر خليج رانجيتاتو المهيب..

قال دونڤان آمراً، بعدما خلع قميصه ليجلسا عليه:

ـ حسناً.. اجلسي.

جلست ليندساي يتمرد على العشب، متجنبة النظر إليه. كان يضع يديه على خصره النحيل، وساقاه المديدتان منفرجتان في وقفة كلاسيكية لرجل يريد أن يجعل وجوده محسوساً.

قال مهدداً بلطف: ليندي!

ـ أوه.. أنا أرتدي الجينز الذي لن يتسخ كثيراً.. وقميصك من نوعية جيدة لا يجوز أن يوضع على العشب.

كانت تتكلم بحدة، وتنتزع بقايا العشب من الأرض بحركة غاضبة.

ضحك وجلس على مقربة منها، لكنه لم يرتد قميصه ثانية.

تعمد العودة إلى الموضوع:

ـ إذن.. أمك، لقد هربت من رانجيتاتو لأنها لم تستطع تحمل العزلة ونقصان الجو الثقافي.

ردت تدافع عن أمها:

ـ يجب أن تتذكر أن الحياة يومذاك كانت أصعب منها الآن، فالطرقات مثلاً كانت أسوأ مما هي عليه الآن بعشر مرات.. ولم يكن هناك تلفزيون وإرسال الراديو كان ضعيفاً وفي بعض الأحيان كانت تمضي شهور طويلة دون أن تضع قدمها خارج المزرعة.

بدا صوته متعاطفاً بشكل غريب:

ـ أعرف.. لا شك أن تلك الحياة كانت بالنسبة لها جحيماً خاصة حين لم تعد تحب توماس، ولم يعد هو يحبها.

اشتعلت نار بين كتفي ليندساي، وتحركت بعدم ارتياح..

ـ أجل.. حسناً، أعتقد هذا.. فأنا لم أعرف شيئاً عن الأمر.. فهما لم يتشاجرا يوماً أمامي..

ـ لا.

بعد صمت طويل، وضعت ذقنها على ركبتيها، تحدق ساهمة إلى البرك الصخرية في أسفل التل.

سألها بلهجة عفوية:

ـ حين كنتما في أوستراليا.. هل أقامت علاقات جديدة؟

ارتفع رأس ليندساي بحدة، وصاحت بذهول: «لا!»

ـ مع أي رجل؟

ـ لا!

ـ إذن لقد هربت من أي ارتباط عاطفي أيضاً.

عندما همّت بالوقوف أمسكت يده القاسية معصمها فوقعت عليه فتأوه لكنه أبقاها حيث هي بصد بسهولة مقاومتها لتتحرر.

أخيراً هدأت وظلت ملتصقة به ولكنها حاولت أن لا تشعر بوجوده.. استرخت قبضته عنها لكنها عرفت أن عليها عدم المقاومة من جديد.

قال وعيناه مغمضتان تقريباً:

ـ أجل.. أنت تخافين أيضاً من التورط.. أليس كذلك ليندي؟ تخافين أي نوع من الالتزام.. ولهذا تخرجين مع.. لا أدري ما اسمه، والغريب في هذا الرجل أنه غير مستعد لإقامة أية علاقة معك رغم إعجابه بك.. إنه لا يناسبك.

قالت بصوت ساخر قاسي. «وهل تظن أنك مناسب.. أنت

مغرور كبير دونڤان راسمسون».

ـ هذا رأيك، أما أنا فأنظر إلى الأمر على أنه فضول..

ـ فضول؟ ألأنك «فضولي».. تضعني فوق المشرحة لتحللني؟ اعلم..

تذمر قائلاً: «كيف تفكرين هكذا..؟»

وعقد ذراعيه حولها حتى هدأت واستكانت وتعلقت به، ولكن الدموع ترقرقت في مآقيها.. أخذ يمسح الدموع الخائنة عن عينيها:

ـ لهذا أنا فضولي.. لأنني أجدك جذابة خلابة.. وكأنك حورية غامضة، مرغوبة كثيراً ولكن احترامي لبراءتك واحترامي لصاحب هذا المنزل منعاني من إغوائك. ما بالك الآن ليندي؟

جعلتها كلماته هذه تنشنج وتتألم، فأمسكت يداه وجهها ترفعانه إلى وجهه..

قال: «هكذا الأمر إذن.. أنت تعاقبين نفسك.. أليس كذلك ليندي؟ ما الذي حدث؟ ومم تهربين؟»

كادت تقول له: «منك ومن مشاعري التي لا أفهمها».

فجأة ضمها إليه بعناق شغوف.. كان صدره يرتفع ويهبط في نغم قديم يبعث الرضى إلى نفسها وكان رعد قلبه المكتوم يصمّ أذنيها. لم تشعر قط بمثل هذا الأمان الذي تشعر به وهي أسيرة ذراعي رجل لا تكاد تعرفه.. أجل أصبح وجوده ضرورة لها، ومصدر خطر دائم لسلام نفسها.

لم تدر كم بقيا هكذا، لكن دونڤان أخيراً قال بهدوء:

ـ لبنك تعلمين كم أحب البقاء هكذا عزيزتي ولكن من الأفضل لنا أن نعود قبل أن ترسل لولا فرقة تفتيش في أثرنا.

عندما لم ترد، ضحك برقة وجلس يمسكها وينظر إلى وجهها المرتبك الأحمر..

قال متجهماً:

ـ تبدين في السادسة عشرة.. فتاة صغيرة، حلوة، متكتمة، خائفة.. لا ترفرفي عينيك وكأنك مذنبة ليندي.. سأنتظر حتى ترغمي في إخباري كل شيء.

أفاقت من ذهولها فقالت:

ـ ليس هناك ما أخبره.

ابتسم وهو يقف ثم شدها معه قائلاً بثقة:

ـ أوه.. بلى.. ألا تعرفين أن الاعتراف جيد لخلاص الروح..؟

* * *

٧ ـ خائن... غشاش!

قبل الخروج إلى حفلة ساندي سوفتهيد فاجأهم دونڤان بالتصريح أنه مغادر في الصباح التالي.

فاجأ هذا لولا وليندساي وجون الذي فاجأ الجميع بإجهاشه بالبكاء مما دفع دونڤان إلى مواساته واعداً إياه بالعودة في القريب العاجل.

قال جون شاهقاً: «وستبقى؟».

ـ إذا استطعت.

اغرورقت عينا الطفل بالدموع ثانية فتعلق بيد بطله: لإجازة؟

التقطه بحنان وضمه إليه وقال بلطف:

ـ لقد انتهت أيام عطلاتي.. ولكنني سأعود قبل أن أسافر.. أعدك. ما رأيك ببطاقة بريدية أرسلها إليك من أوستراليا؟

ـ وصورة «الكاولا» عليها؟

هز جون رأسه بحماسة وزالت الدموع من عينيه.

أمر لا يصدق.. لكن دونڤان راسمسون الذي يعامل النساء كالدمى، يصلح أن يكون أباً.. فحتى الطفلة أحبته وها هي تناغي بسعادة بين ذراعيه. ربما هو معتاد على الأطفال.. وربما لدى أخته كريستيان وأريك، طفل الآن.

في الطريق إلى الحفلة، قالت ليندساي فجأة:

ـ تبدو واثقاً من نفسك مع الأولاد.. فهل أنت خال محب؟

ـ ليس بعد.. لقد تزوجت شقيقتي مرة لكن زواجها لم ينجح.. وكانت على وشك الزواج في السنة الماضية ولكن التجربة انهارت أيضاً.. فقررت أن تتريث حتى تجد رجلاً تحترمه ليكون أباً لأولادها.

ـ أعتقد أنك لم تحب خطيبها.

مسكين أريك! لقد تبددت أحلامه الذهبية!

رد وفي صوته رنة غريبة:

ـ لا.. فقد كان جشعاً.. منافقاً طماعاً، منتهزاً للفرص وكان يفتقر إلى الخبرة.

أنت على حق!

تمتمت بصوت مرتفع:

ـ اتهام قاس.. أعتقد أن الحب أعمى شقيقتك حين خطبت له.

قال: «كانت تعاني من اضطراب عصبي.. وأعتقد أنها تدرك الآن أنها بحاجة إلى زوجها الأول رغم كل شيء».

ـ كل شيء؟

لم يخطر ببالها أن تظهر فضولاً غير مرحب به.. ولكنها لا ترى على وجه دونڤان ما يوحي بانزعاجه.

ارتفعت الكتفان العريضتان بحركة خفيفة:

ـ لقد تزوجا وهما صغيران.. رغباتهما تفوقت على التفكير في قدرتهما على العيش معاً.. وهذا ليس سبباً صالحاً للزواج.. ولكن كان بإمكانهما النجاح لولا لسان حماتها المسموم.. ولم تعرف كريس كيف تتعامل مع تخريبها المتعمد، وكان زوجها مقرباً عاطفياً من أمه فلم يفهم ما يجري.

ـ وأنت؟

هز كتفيه مرة أخرى:

ـ كنت مشغولاً كثيراً ولم أنتبه إلى ما يحدث إلا بعدما تأخر الوقت.. كان غراي عنيداً ومتكبراً، وكذلك كريس.. وأظنهما قد

ينجحان مرة أخرى.. لقد تمادت والدته في تصرفها المتكبر، ولقد وعى ميلها للأذى الآن.. وكل ما عليهما الآن هو التغلب على كبريائهما.

ـ هذا كل شيء؟

ابتسم: «لقد سبق أن حدث شيء كهذا من قبل.. أخبريني ليندي.. هل تتخلين عن كرامتك من أجل الذي تريدين؟»

ـ إن لم أتخل عن كل شيء، فلن يكون ذلك حباً. أليس كذلك؟

وكانت فخورة بالرد المنطقي لأنه لا يكشف شيئاً ولا يعترف بشيء.

ـ هكذا يقال.. كل الشعراء الذين نظموا شعراً في الحب يقولون هذا، فهل يمكن أن تفعلي هذا ليندي؟ هل تعرضين نفسك أمام شخص، بعيداً عن هذا القناع البارد الذي تضعينه؟

ارتجفت وقالت بصوت مرتعش:

ـ لا أدري.. ترعبني الفكرة.

ـ لست الوحيدة التي ترعبها الفكرة.. هل هذا هو المكان؟

ـ أجل.

كانت مالينا ڤالي هناك، بدا وجهها الجميل كالدمية، وكان خالياً من التعابير، ما إن رأت ليندساي حتى استقرت عيناها عليها لحظة، ثم عجزت عن إخفاء اهتمامها بمرافق ليندسي.. ولأنها مالينا لم تحاول إخفاء شيء.. تخلل نوع من الارتباك الغريب تعابير وجهها.. وعندما قامت ساندي سوفتهيد بالتعارف تحركت مالينا للقتل..

سألت بأنفاس مقطوعة متجاهلة وجود ليندساي:

ـ لست من هنا؟

ـ لا.. أنا أوسترالي.. من ميلبورن.

ـ أوه..

طافت العينان المستديرتان من وجهه إلى بذلته الثمينة الأنيقة

التفصيل:

ـ وكم ستبقى هنا؟

لن يكتشف أحد أن تحت تصرفاته تختبىء النسلية، إلا إذا كان يعرفه جيداً.. وهذا أمر غريب، لكن ليندساي رأت منه شيئاً جديداً ولا يمكن أن يقال إنها تعرفه جيداً.

قال بلطف: «أنا لسوء الحظ مضطر للسفر غداً».

استقرت عينا مالينا المستديرتان على ليندساي:

ـ أمر رائع لبندي.. صديق قديم؟

جعلها دافع شيطاني تقول برقة:

ـ لا.. ولكنه صديق طيب على ما أرجو.

ابتسم دونڤان لعينيها الساخرتين ووافق على كلامها بسحر، فتابعت مالينا طرح السؤال.

ـ صداقة شبيهة بصداقتك لجايمي؟ أين جايمي؟

نظرت إلى ما حولها وكأنها تتوقع ظهوره من وراء ورق الجدران.. فتمتمت ليندساي:

ـ إنه في جولة عمل.

ظلت الحفلة قائمة إلى ما بعد منتصف الليل. خلالها تمكنت مالينا من جعل وجودها ملموساً.. فأينما وقف دونڤان تواجدت معه وفي مرات عدة نظرت ليندساي إليه فرأته يكلمها.. ولكن دونڤان كان مطلوباً للرقص والحديث بحيث لم تستطع مالينا الاحتفاظ به لنفسها، مع أنه لا يمكن أن يسمح لشيء كهذا أن يحدث.. فلديه لباقة أصيلة تمنعه من هذا..

وقت العشاء، قطعت ساندي قالب حلوى رائع، وقدم الشراب، وألقيت خطب صغيرة مرحة.. ووضعت زوي شريطاً مسجلاً ليرقص الجميع احتفاء بساندي.

قالت ساندي وهي تنظر إلى حفلتها برضى:

ـ نجاح هائل. حسناً ليندي، أظنها حفلة ناجحة، ألا تظنين هذا؟

ـ أنت تقيمين دوماً حفلات رائعة، وهذه أفضل من غيرها.

ـ شكراً لك لأنك أحضرت هذا الرجل الرائع.

نظرت ساندي إليه باهتمام ثم أردفت:

ـ أتعرفين.. أحب الرجال المديدي القامة.. من هو؟ ولا أقصد اسمه فقط.. إنه شخص مميز.. فلا يملك الناس هذه الهالة من السلطة إلا إذا كانوا يستخدمونها دائماً.. أتعرفين أن رجلك هذا ولد والسلطة معاً.

ردت ليندساي بحدة لا لزوم لها:

ـ ليس رجلي.. إنه هنا في إجازة.

ـ أوليس معجباً بك؟ هيا الآن.. أبرزي الوجه الآخر..! المسكينة مالينا بذلت ما في وسعها طوال المساء، وهو يعاملها بلباقة وأدب تجمد دم أي شخص ذي بشرة غير سميكة كبشرتها. هل قابلته في أوستراليا؟

ـ لا!

نفت الأمر بسرعة.

ـ لا.. لقد جاء يتفرج على المكان، وأنت تعرفين لولا وأبي.. استضافاه في الغرفة الإضافية قبل أن تتاح له فرصة الرفض.

ـ ولا أعتقده سيقول لا لو رآك أولاً. أظنه رائعاً.. لا يبدو لي شخصاً هائماً على وجهه فكراً أو عملاً.. ولا يمكن أن يفعل شيئاً بلا سبب في الحياة.. على أي حال هذه قصتك عزيزتي، ولا تدعيني أثنيك عنها.

ثم طلبا معاً إلى الرقص، فغرقت ليندساي في الحديث مبتسمة.. كانت تعابير وجهها دافئة ولكن عليه مسحة تباعد صامت وكأنها بذلك تضع درعاً لحماية نفسها من أي تقارب.

عندما جاء دونڤان الذي احتواها بين ذراعيه، امتزج الماضي

بالحاضر ونظرت إليه بعينين تفضحان أسرارهما..

أدفأت موجة احمرار طفيفة بشرتها الناعمة، واجتاحت عنقها موجة شاحبة انتهت عند خديها، تاركة عينيها كجوهرتين منعبتين.. مع ذلك لم تستطع أن تشيح بصرها عن نظرته الضيقة المتفرسة.

قال محدثاً:

ـ عيناك كالزبرجد وهما في معظم الوقت ما بين الأزرق والأخضر.. لكن حين تغضبين أو تخافين تصبحان خضراوين.. حين أعانقك تصبحان كالزفير الأزرق.

صعُب عليها الاحتفاظ برباطة جأشها في وجه هذا الهجوم المنظم.. ومع أن لونها ازداد توردا، فقد أجبرت نفسها على الابتسام وقالت ساخرة:

ـ أما عيناك فتذكرانني بالأردواز الرطب.. سوداوان جداً، بحيث لا يعود لهما لون، مع ذلك فيهما لون أخضر قاتم.

ارتفع حاجباه المستقيمان:

ـ ترى ماذا سيكون لون عيني طفلي فيما لو حملته أنت؟

خفق قلبها بشدة وعجزت عن الكلام ثم غضت طرفها إلى فتحة ياقة قميصه..

قالت بعد لحظة طويلة ممزقة للأعصاب:

ـ إنها مسألة جينات وراثية.. وربما تكون غير مميزة.

ـ شعرك أحمر على ما أتصور. لشعرك لون صحراوي ولشعري أيضاً.. إن أي طفل قد ننجبه سيكون طويلاً أسمر البشرة.. أنا أشدُّ منك اسمراراً، لكنك لست بلون الزنبق الأبيض الشاحب.. وسيكون بكل تأكيد جميل الطلعة. أليس كذلك؟

في صوته ضحكة ذات معنى جعلت قلبها يركض بذعر في صدرها..

أردف مازحاً:

ـ ما من تعليق؟ ألا يعجبك أن تحملي بطفلي ليندي؟

غرفت بطريقة ما من مستوعب قوة خفي، فجعلت صوتها مشبعاً بالسخرية:

ـ وهل تطلب يدي.. دونڤان؟ لا..؟ إذن أخشى أن يكون ما تتحدث عنه افتراضاً.. أتعلم.. ظننتك أكثر حذراً من هذا.. فمن هم في مثل عمرك لا يضعون أنفسهم في موقف قد يساء فيه فهمهم.

ابتسم لها والسخرية وشيء من الاحترام في عينيه:

ـ أنا قادر على تخليص نفسي من أي موقف.. لكن لو طلبت منك الزواج.. فماذا سيكون ردك؟

ـ لا.

كانت تنهيدته مسترخية:

ـ يا للأسف! لقد حطمت فؤادي.. أعتقد أن أفضل ما عليّ فعله الآن السفر إلى مجاهل أفريقيا لاصطياد الوحوش مدة سنة.

إذن هو يمزح.. بالتأكيد كان يمزح! وهي أيضاً، فلماذا تشعر وكأنه رماها من أجل امرأة أخرى؟

قالت بخفة: ولكنك بدل هذا ستعود إلى أوستراليا، وتمارس نوعاً آخر من الصيد.. فضولي يدفعني إلى أن أسألك دونڤان: كيف تستطيع إدارة امبراطورية بمكالمة لا تتجاوز نصف ساعة كل يوم؟ كنت أظن أن ملوك الأعمال أمثالك يعيشون أربعاً وعشرين ساعة لأعمالهم.

تحركت الكتفان العريضتان ولكنه لم يظهر الدهشة لأنها اعترفت بأنها تعرف من وماذا يكون.

ـ أفوّض العمل لأشخاص أثق بهم، ولي سكرتيرة ماهرة. ولكنني لست قاطع طريق أقطع الأعناق بتهور.. عملي رصين وأنا أستمتع به.. وإلا فلن أقوم به.. ولكنني أستمتع بأشياء أخرى وأتأكد من إيجاد الوقت لها.

ـ بما فيها الضياع في أماكن بعيدة؟

ـ أنا لا أضيع أبداً.

في طريق العودة أملت ليندساي أن يعانقها متمنياً لها ليلة سعيدة. هي لا تدري بالضبط ما هي مشاعرها تجاهه فالارتباك يجعل المرء عاجزاً عن معرفة الذات ولكن لن يكون هناك تراجع إلى الوراء، فالتجاذب بينهما قوي.. كان وما زال وسيبقى قوياً.. شعرت بأنها بدأت تعجب به وتحترمه.

كان ما بينهما شيئاً محفوفاً بالمخاطر، كالحب، أو ما يشبه الحب، الذي لا يؤمن به. فعندما ذكر زواج أخته لم يستخدم تلك الكلمة ولا مرة.. بل استخدم عوضاً عنها كلمات كالحاجة والمال والاحترام ولكنه لم يذكر الحب.

وحصلت على أمنيتها.. فأمام بابها عانقها لاثماً جبينها بروعة وحنان، وكأنها صديقة. ثم قال: «تصبحين على خير».

ولم ترد.. فقد كانت متوترة بالإحباط، وفي تلك اللحظة كرهته بكل خلية في جسدها.

سافر باكراً.. بعد الفطور مباشرة.. وجاء اليوم التالي حاملاً معه طرداً بريدياً من وانغاري فيه هدايا لهم جميعاً.. كتاب لتوماس، كتاب جديد مع صور جميلة للطيور.. وللولا زجاجة عطر فرنسي..

همست لولا بإثارة وهي تضع لمسة من العطر على معصمها.

ـ أوه.. إنه بارع.. شمها توماس. ما أزكاها من رائحة!

شم الزوج العطر طائعاً ثم قطب.

ـ هذا صحيح.. لكنه ليس من النوع الذي اعتدت عليه؟ إنه قوي..

ضحكت لولا، ثم تنهدت:

ـ إنه العطر الذي أحب أن أضعه كامرأة، يا له من بارع ماكر، بعيد النظر.. ماذا أرسل إليك ليندي؟

قالت بصوت مشدود: «زبرجد.. أنظري».

كان خاتماً، حجره الأزرق الأخضر الرائع ليس كبيراً ولا صغيراً جداً موضوعاً في إطار فضي.

تنفست لولا: أوه! أوه.. ما أجمله!

قالت ليندي بجفاء:

ـ يجب أن يستعيده.. ثمنه غال.

ـ لا ليندي.. لا أظنه ثميناً.

التفتت إلى زوجها تطلب الدعم:

ـ ألا يمكنها القبول توماس؟

قال: «عليها أن تفعل ما تشاء.. لكنني أرى أن حجراً كريماً بهذا الصفاء مرتفع الثمن».

توسلت لولا: «جربيه على الأقل».

دسته على مضض، وكأن مجرد وضعه يشكل تنازلاً عن مبادئها، وبدا رائعاً.

ثم ما لبثت أن انتزعته بحركة غاضبة سريعة وأعادته إلى العلبة السوداء الصغيرة وأقفلت الغطاء بشيء من الشراسة.

كان جون مسروراً بالمكعبات الحمراء والبيضاء التي وصلت وحصلت سالي على عباءة فضفاضة أمسكتها لولا بيديها قائلة:

ـ أنا مستعدة للتخلي عن الكثير لأراه وهو يشتري هذه.. ترى أيصطحب معه امرأة ليشتريها؟

لم تستطع إخفاء الرنة القاسية في صوتها:

ـ دونقان؟ لا.. بإمكانه التعاطي مع أي موقف.. وأستطيع أن أراه يقلب المحل رأساً على عقب حتى يجد العباءة التي يريدها لسالي.

عندما كانت لولا تضحك وتوافق على كلامها، تركت عينا توماس وجه ابنته.. لكن تلك الليلة وبعيداً عن سمع لولا سألها:

ـ أتعرفين إلى أين ترسلين الخاتم؟

ـ أجل.

لمجموعة راسمسون هولدنغ مكتب في أوكلاند، يمكنها الحصول منه على العنوان الذي تريد لترسل هذا الشيء اللعين إلى هناك وتسجل عليه «خصوصي» نعم إنه سيكلفها كثيراً ولكنها تريده بعيداً عنها.

ـ هل قرأت رسالته؟

ـ أجل.. جميلة الصيغة.

عبس توماس: «ألا تظنين أنه عنى ما كتب فيها؟»

ـ يعني ما قاله بالتأكيد! يجب أن تدرك أبي أنه كان يقضي وقتاً ممتعاً هنا.

ـ أستطيع القول إنه انسجم معنا جيداً.. والواضح أنه مهتم بالماشية في أوستراليا.

التقط توماس الصحيفة ونظر بلا اكتراث إلى العناوين، ووضعها جانباً ليضيف:

ـ يجب أن أعترف بأنه أعجبني.. رجل قوي، وأميل إلى الثقة به.

فهمت ليندي ما يعني، وردت بموضوعية:

ـ أجل.. أنت لا تلتقي بكثير من الرجال من أهل الثقة.

تلاقت عيونهما بثبات، بعد لحظة هز توماس رأسه والتقط الصحيفة مجدداً.

كان اليوم التالي حاراً يقطع الأنفاس، لا نسمة فيه تحرك الأشجار أو تجعد سطح مياه الخليج.. بعد الغداء، أخذت ليندساي اللاندروفر وذهبت إلى القرية ومعها الهدية الصغيرة ولائحة مشتريات.. من المفرح مقابلة الناس والاستماع إلى الشائعات المحلية.. ولكنها بطريقة ما أحست أن البرق قد بهت في حياتها.. وفيما كانت راجعة إلى المزرعة، قالت لنفسها بصوت مرتفع: حسناً.. أنت معجبة به كثيراً.. لكنك واحدة من الكثيرات أيتها الحمقاء.. انسيه، لأنه سرعان ما ينساك.

إنها نصيحة جيدة وليس عليها إلا أن تتعلم كيف تتبعها!

ما إن دخلت إلى البيت حتى عرفت أن هناك خطباً ما وقع.. فنادراً ما يتشاجر والدها ولولا. أما خلافاتهما فسرعان ما كانت تنتسى.. لكن لولا كانت تبكي ووجه توماس متجهم.. راحت تنقل بصرها من أحدهما إلى الآخر، ووقفت لولا وهرعت إلى الخارج محنية الرأس لإخفاء موجة أخرى من الدموع.

اقتربت ليندساي إلى الطاولة الكبيرة حيث الرسائل منتشرة:

ـ ما الأمر؟ أخبار سيئة؟

تردد والدها ثم دفع لها بورقة:

ـ أجل.. والأفضل أن تقرأيها بنفسك.

كانت رسالة من أوكلاند.. ألقت نظرة سريعة إلى التوقيع فوجدت أنها موقعة من الزعيم كورنغ الذي كان يعيش في الجوار حتى اضطر إلى مغادرة المكان.. وفي رسالته هذه يخبرهم بأن القبيلة قررت تحويل أرضها في رانجيتاتاو إلى فنادق وموتيلات وأراضٍ للتخييم. تراقصت الكلمات أمام نظرتها المذعورة فشحب لونها وانهارت على كرسي ثم أعادت القراءة مجدداً.

ارتعشت الورقة بين أصابعها وهمست بهدوء:

ـ لا يمكنهم فعل هذا.. أمن الممكن ذلك؟ دادي.. يجب ألا يحدث هذا!

لم تكن قد نادته بدادي منذ زمن بعيد وهو ما كانت تناديه به في الطفولة ولعلها كانت صيحة تريد منها الطمأنينة.. تنهد وأخذ الرسالة التي طواها ثم أعاد فتحها ثانية بقلق.

ـ بإمكانهم ذلك بالتأكيد ليندي. إنها أرضهم.. ولا تعتقدي أبداً أنهم لم يفكروا ملياً حتى اتخذوا هذا القرار.. إنهم يحبون رانجيتاتاو كما نحبها وأكثر..

صاحت: «إذن لماذا يريدون تدميرها؟»

نظر إليها وفي عينيه مزيج من الشفقة والتفهم:

ـ عزيزتي.. لأنهم بذلك سيوفرون للشباب فرص عمل وبالمال يمكنهم تنمية ما تبقى من أرضهم.

أشار من النافذة إلى التلال التي تحميهم فإذا حدودها واضحة بحدة.. في جانب منها أشجار الصنوبر، وفي الجانب الآخر مزيج من الوزال الذهبي «والمانوكا» البيضاء الجميلة النظيفة:

ـ انظري إلى هناك ليندي.. ستبقى رانجيتاتاو جميلة مهما حصل.. المزرعة مفيدة لنا لأن أرضها لنا ولأنها تخولنا الحصول على كل مصادر الصناعة العصرية لجعل هذه الأرض مزدهرة.. فلماذا نلوم القبيلة لاستخدامها هذه المصادر؟ بعد عشر سنوات ستكون أرضهم مثمرة كأرضنا.. ولأن الوضع الاقتصادي صعب هذه الأيام علينا أن نرحب بأي تطور.

جعلته عودة لولا يصمت.. كانت قد غسلت آثار الحزن والصدمة عنها ثم قالت وهي تتقدم لتضع ذراعها في ذراع زوجها:

ـ أنت ككل الرجال تستخدم المنطق وتظننا عاطفيات حين نرى الأمور بقلوبنا.. لكنك تكره الفكرة أيضاً.. صحيح؟

رنا توماس إليها بطرف عينه وهز رأسه موافقاً وعلى وجهه المطمئن عادة بؤس.

كانت لحظة حميمة، لحظة تشعر فيها ليندساي بأنها متطفلة. قطع تلك اللحظة هدير سيارة وصياح الطفلة.

نظرت لولا من النافذة:

ـ من.. أوه إنه دونقان! سأهتم بسالي أولاً.. ليندي قومي بما هو ضروري رجاء؟

كانت نظرتها ماكرة، متآمرة.. فقد أحست أنها تعرف لماذا يرون دونقان راسمسون كثيراً..

نظر توماس إلى رأس ابنته الذي صدمه جمودها المفاجيء وقال بصوت أجش:

ـ سأخرج أنا.

حين دخلا إلى غرفة الجلوس الصباحية، لم تكن ليندساي قد تحركت.. إذ جعلها فتور رهيب في همتها لا تحرك ساكناً ولكن عندما سمعت صوت دونقان القاسي، رفعت رأسها..

كان يقول: «.. أنا آسف» على وجهه المهيب خطوط متجهمة.

ـ حين شاهدت السيد كورنغ هذا الصباح أخبرني بأمر الرسالة وأنه أرسلها بالأمس.. فهرعت إلى هنا على أمل الوصول قبل الرسالة.

هزت ليندساي رأسها بارتباك وخوف وسألت بضعف:

ـ عمَ تتكلم بحق الله؟

التفت إليها بحدة:

ـ أحاول فقط أن أشرح أن التعاونية القبلية وراسمسون هولدنغ، شركاء في مشروع التنمية.

راقبها وهي تحرك يدها بحثاً عن ظهر الكرسي لتتمسك به، وعندما لم تقل شيئاً عاود كلامه بصوت غير واضح المعالم:

ـ لقد رأيت هذا المكان منذ ثلاث سنوات، وقد احتجت إلى هذه المدة كلها لأبحث التفاصيل وأثبتها.. ومن سوء الحظ أن السرية كانت أمراً ضرورياً.

ـ إذن أنت..؟ ألهذا السبب..؟

لم تستطع صياغة الجملة.. وتألمت في أنفاسها، تألمت حتى وهي تفكر.. أما اليد الممسكة بالكرسي، والأصابع النحيلة فأصبحت بلا دم.. باليد الأخرى لامست فمها، ثم تركتها تعود إلى جنبها، وأحست أن قلبها بات أرضاً قاحلة جدباء.

تجاهلها دونقان وقال لأبيها:

ـ أملت أن أخبرك الأمر بنفسي.. لقد عرفت..

لم تتمكن من تحمل صوته البارد الخالي من العاطفة، فانفجرت:

ـ عرفت؟ وماذا قد تعرف؟ كيف تتسلل وتكذب..!

قطع عليها صوت أبيها المصدوم مرارة تهجمها:

ـ ليندي!

فانتفضت وصمتت.

لم تستطع تحمل رؤيته واقفاً وهو مسيطر حتى على قوة أبيها الهادئة بحيويته السوداء.. خائن.. غشاش! صرخت بالكلمات في وجهه.. ولكن عندما وضعت بدأ مرتجفة على فمها أدركت غلطتها فارتدت مبتعدة وفي عينيها تترقرق دموع أبت الانهمار.

قال توماس لدونڤان بعد لحظة صمت متوتر:

ـ أقدر لك تصرفك.. وكنت أفضل لو أخبرتنا منذ البداية، لكن عذرك في عدم إخبارنا واضح.. وأنا لا أنوي تقديم اعتراض قانوني على المشروع.

أصبح دونڤان للمرة الأولى في موقف حرج.. ومن خلال الطنين في أذنيها سمعته ليندساي يقول بهدوء:

ـ تُشعرني بأنني شخص حقير، كنت أخبرتك لو كنت قادراً.. لكنني أحسست أن واجب الاحترام يلزمني بالصمت.. وأنا لم أستمتع بالموقف.. وليتني استطعت المجيء إلى هنا قبل الآن.

هز توماس كتفيه:

ـ ما حصل حصل.. والآن هل أقدم لك شراباً؟ شاي.. قهوة؟

ـ شاي.

ـ ليندي؟

لم تتحرك، فقال توماس بعناد:

ـ ليندي.. هلا أعددت لنا الشاي أرجوك؟

تحرك رأسها في موافقة صامتة، وقالت بأدب متحفظ: أجل..

وتركتهما.

غبية.. غبية لأنها فقدت أعصابها بمثل هذه الطفولية! لقد مضت سنوات طويلة لم تنفجر فيها غاضبة. ولكن العذاب العاطفي في

أعماقها جعل من المستحيل عليها البقاء هادئة.. الآن فقط وهي بمفردها في المطبخ الهادىء، اعترفت أن سبب ثورة غضبها، إدراكها المفاجىء بأن اهتمام دونڤان بعائلتها هو مشروع تنمية رانجيتاتاو.. لقد بدأت تعجب به كثيراً.. وهذا ما شعروا به جميعاً.. ولكنه خدعهم جميعاً.. اتخذ لنفسه مكاناً في حياتهم.. وهو لم يكن ينوي طوال الوقت سوى الخيانة!

* * *

٨ ـ المرأة الدمية

عندما كان الماء يغلي، كانت ليندساي واقفة وعيناها على المنظر خارج النافذة، تتصور الشطآن مكتظة بالمتنزهين الصاخبين الفضوليين.. قريباً ستكون التلال التي أحبتها طوال حياتها متوارية وراء فنادق عالية وسيصبح الجو الدافىء الصافي ملوثاً بدخان المركبات.

ذكرها غليان المياه في الإبريق بما حولها.. فصرت للحظة على شفتها السفلى بقسوة تركت آثار الأسنان على البشرة الرقيقة.. ثم ضربت الجدار بيدها وشتمت بما لن يعجب به أبوها أبداً..

ولما تذكرت وجه لولا الغارق بالدموع طغى على يأسها وإذلالها غضب شديد ومض في أعماق عينيها..

كانت لولا قد عادت حين حملت الصينية إلى غرفة الجلوس.. بدا الجو في الغرفة متوتراً.. ولكن هدوء توماس وتفهمه هوّن الأمور.. وكان سحر دونڤان عامل مساعد.. ولكنها كرهته بصمت..

احتست ليندساي القليل من الشاي.. متسائلة متى أدرك للمرة الأولى أن في سحره سلاحاً غير عادل، سلاحاً واحد في مستودع مخيف.

ما الذي يجعله مسيطراً هكذا؟ ثقة بالنفس عارمة؟ أم إيمان راسخ بالنفس أنه يعرف نفسه جيداً؟ يعرف بتلك القدرة التي لا تخطىء في تقدير نقطة ضعف الآخرين، والتي تعطيه الثقة وتجعله خصماً خطيراً.

جعله شيء قالته لولا يضحك، فلمعت أسنانه القوية في وجهه

المتعجرف المرتفع. أما هي فارتعشت أصابعها الحاملة لفنجان الشاي وغضّت طرفها.. توقف للحظة كل شيء. في تلك اللحظة من الزمن وهو يضحك، تذكرت ما تشعر به عندما تطوقها ذراعاه.

الحمد لله لأنه لن يعود إلى هنا مرة أخرى.. فبعدما حقق مأربه سيمضي في طريقه، ولن يزعج نفسه أبداً بالتفكير فيهم مجدداً. ويجب أن تقنع نفسها أن لا شيء له هنا، وإلا، عاجلاً أم آجلاً، سيطغى عليها ذلك المد الناري وتصبح دمية بين يديه حتى يملّ منها.

تحركت يده البادية لطرف عينها ورسمت الأصابع النحيلة إشارة خفيفة فضحكت لولا مجدداً.

أجفلها صوتها وهي تسأل:

ـ هل هذا جون؟ لا، ابقي أنت لولا.. سأذهب لأراه.

إنه عذر لتغادر الغرفة، كانت حيلة شفافة جداً لكنها نجحت.. وفيما كانت في الطريق إلى غرفة جون استعادت بعضاً من سيطرتها على نفسها..

كان جون متورد الوجه وعلى وشك البكاء، ولكن بعد احتضانه وإعطائه القليل من الماء عادت إليه حيويته الطبيعية. وقال لها وهو يشدها إلى المطبخ:

ـ فلنذهب لنأكل بعض البسكويت.. أنا جائع لبندي.

ـ أنت جائع دوماً حبيبي.

ـ إنها معدتي!

ـ أتظن أن معدتك سترضى بقطعة تفاح؟

تظاهر بأنه يفكر في الأمر.. ثم هز رأسه:

ـ مع القشرة.

ـ طبعاً!

كانت في المطبخ تقطع تفاحة كبيرة خضراء إلى أربعة أجزاء، حين دخلت لولا لتضع الصينية على الطاولة بسرعة وتقول:

ـ سأفعل أنا هذا.. أحضري الحليب ليندي. لقد تركته على الطاولة.

ـ وإلى أين ذهب الرجلان؟

أخذت السكين منها:

ـ كان والدك يتحدث عن نقل قطيع النعاج.

وهذا يعني أنها أطالت الغياب بحيث رحل دونثان. شكراً لله! لينها لا تراه إلى الأبد. كانت البسمة ما تزال على وجهها عندما دخلت إلى غرفة الصباح.. لكن سرعان ما تلاشت البسمة.. آه! لولا مخادعة. ارتدت بحركة عنيفة، لكنه أمسك معصميها وجذبها إليه. كانت أصابعه قاسية على عظامها الهشة.

ـ أريد أن أكلمك.

نظرت بعناد إلى يديه.. فتذكرت ما كان ليكون رد فعل أمها على هذا الطلب.. كانت روندة ستقول كما قالت مئات المرات ليندساي: رغباتك أوامر سيدي..

ولكنها قالت بصوت بارد: «ليس بيننا ما يُقال».

رفع يديه حتى مرفقيها:

ـ وهل تؤمنين بهذا؟ أعرف أنك كسيرة الفؤاد بسبب المشروع الجديد.. ولكن بعد الفترة الأولى التي سيكثر فيها الغبار والضجيج لن تجدي اختلافاً كبيراً.

رفعت إليه عينين كانتا ناراً خضراء صافية، فوجدته ينظر إليها وعرف مدى كراهيتها له.. فقسا صوته:

ـ حسن.. إذن تعتقدين أنني نذل كبير.. وهذا حقك.. لكن تذكري أن قرار تنفيذ المشروع أقر قبل أن نلتقي مرة ثانية.

قالت ساخرة: «ما أسهل هذا القول».

ثم انتبهت إلى قوله:

ـ ماذا تعني.. مرة ثانية؟

وكادت تقتل نفسها لأنها فضحت نفسها بهذه السهولة.

ضحك برقة وأنفاسه حارة على جبينها وهو يجذبها إلى ذراعيه:

ـ آه.. هيا الآن.. إلى أي حد تظنيني غبياً؟ لقد عرفت منذ أسابيع أن الغالية المشهورة ليندساي فيربان، التي التقيتها في «سيرفرز» والرصينة ليندي جورغنز التي التقيتها في رانجيتاتو هما واحدة.

تسمرت في مكانها، تحاول استيعاب ما يقول وسمعت الكلمات ترن وهي تدور في عقلها الذي بدا فجأة وكأنه فارغ من أي شيء آخر.

ثم قال مبتسماً:

ـ ليندساي ذات الإغراء، وليندي صاحبة التحفظ. هل هناك انفصام في شخصيتك؟ أم لعلك متقلبة كالحرباء؟

ـ لا..

أحست أن كلامها حار كالجمر.. فقال بنفاد صبر مفاجىء:

ـ لا نستطيع الكلام هنا.. فلنذهب إلى الشاطىء.

أطاعته كطفلة وسمحت له أن يحثها إلى الخارج إلى حيث الشمس التي تشع بقوة فوق المرج.. استسلمت للقدر لأنها تعرف أن عليها إنهاء ما هو معلق بينهما ليرحل بعد ذلك دونثان بلا عودة.. وعندئذ تتمكن من المضي في حياتها.

لم يتكلم أي منهما وهما يسيران في الممر تحت أشجار «البوتوكاوا».. لكن عند حافة الماء قال:

ـ هل ظننت أنك ستنجحين في الهرب مني ليندساي؟

عندما لم ترد، ضحك وأمسك يدها النحيلة الضعيفة وأكملا السير على الشاطىء ووصلا إلى حصن «البا» الذي يقسم أملاكهم عن الشاطىء الآخر.. سار في طريق رعاة ضيق يقود إلى مساحة مسطحة صغيرة.. دفعها بلطف إلى الأرض لتجلس ثم جلس قربها ضاحكاً على وجهها الشاحب بسخرية.

ـ ماذا ستتباحث أولاً.. مسألة رانجيتاتو أم مسألة تحولك؟

عقدت أصابعها حول ركبتها المرفوعة ونظرت إلى مياه الخليج الزرقاء والخضراء. قال له صوتها الهادىء الخالي من أي تعبير:

ـ رانجيناناو.

ـ حسناً.. لقد كنا نعمل على الخطط من أجل رانجيناناو منذ ثلاث سنوات، ولقد تمت الآن.. كل ما بقي لنواجهه هو الاعتراضات. وبما أن والدك لن يعترض، فهذا لا يترك في وجهنا غير جمعيات المحافظة على البيئة.. وآمل أن أبرهن لهم أن هذا المكان سيبقى على جماله رغم ما سنقدم عليه من تنمية.

ـ هكذا إذن..

كادت تسأل عما سيزيد من جمال هذا المنظر الذي أمامها.. ولكنها تعرف أن لا فائدة من السؤال.. فرانجيناناو بالنسبة له ليست أكثر من وسيلة للكسب.

اخشوشن صوته بسبب شيء من التوتر:

ـ حسناً.. أعرف أن لا شيء سيعوض عليك خسارة وحدتك.. ولكن اعلمي بأنني أقدّر الجمال كثيراً!

كتقديره لجمال النساء؟

ـ أوه.. أقدر هذا لك.. لكن ماذا عن المجلس البلدي؟

قال مركزاً على كلامه:

ـ إنهم مسرورون.. لديهم أحد عشر ميلاً من الطريق، وتصاعد كبير في معدلات الإنفاق على المناطق الأخرى التابعة لهم.. إضافة إلى مواقع جديدة، أعمال.. إن الكثيرين سيضطرون لترك موطنهم بحثاً عن عمل وهذا ما حصل لك.

لم تقل له شيئاً عن رغبتها في الالتحاق بالجامعة، فما الفائدة؟ إنه يراها سهلة الانقياد والإقناع وهي تشعر بالذل وله كل الحق أن يشعر بهذا بعد تصرفها في لقائهما الأول.

قالت: «أهنئك، أظنك قصدت هذا المكان للمفاوضة؟»

استند على العشب.. ويداه خلف رأسه: هذا صحيح.

ـ إذن لماذا تركت والدي يقنعك بالبقاء؟

ـ أنت.. لقد أعجبتني!

ـ أعجبت بي؟

ـ أجل.. كنت أنوي قضاء إجازة ولكنك أثرت إعجابي.. كان أمامي مزيج جميل من فتاة محنكة وساذجة.. ووجدت أن من الممتع معرفة أي من الشخصيتين أنت.. وكان الأمر فعلاً ممتعاً جداً.. لقد سحرتني. أدرك الآن أن سبب ذلك قيام عقلي الباطن بإيجاد العلاقة. لكن في ذلك الوقت كنت أرى ومضات عن ليندي أخرى. كنت أراك شخصيتين.. إحداهما شخصية حريرية الملمس وعصرية والثانية ليندي التي لاحقتني في منامي وأحلامي.. الدافئة المحبة!

انبرت واقفة ولكنه أمسك قدمها فتعثرت ووقعت أرضاً.. قاومت شاهقة لتستعيد أنفاسها.. وعندما استطاعت أن تصب اهتمامها على أشياء أخرى، وجدته يمسكها ويقول:

ـ وتلك كانت ليندي.. ليندي التي كنت أريد أن أراها مرة أخرى، الدافئة، المتوهجة كسماء مليئة بالألعاب النارية.. جميلة المنظر والإحساس..

اجتاحها شعور منفصل عن العواطف.. شعور صاف وحاد كسيف مؤلم. تقلصت أعصابها ثم استرخت عندما اقترب منها معانقاً فبادلته عناقه بشوق.

خنقتها المشاعر، فكرت أنها ستكـ نفسها وأن عليها مقاومته، ترى أبإمكان أية امرأة جميلة أن تجتذب هذا النوع من ردة الفعل.

همس بصوت أجش:

ـ يا إلهي ما أجملك! أنت كتمثال إغريقي.

ردت هامسة بحيث بالكاد يسمعها:

ـ وأنت كذلك.

بهرتها الشمس، فأغمضت عينيها. سألها: هل أحببت رجلاً في حياتك؟

لم تجب فأصرّ هامساً:

ـ أخبريني ليندساي هل وقعت في حب أي رجل؟

ـ لا أبداً..

ـ وماذا عن البيطري؟

ـ إنه صديق.

ـ جيد.

عاد يعانقها بشغف.. ثم رفع رأسه وتأوه:

ـ ماذا تفعلين بي؟ معك أنسى الدنيا وما عليها.. أيتها الساحرة الجميلة التي تعذبني عيناك الخضراوان وبشرتك الحريرية وقدّك الذي يستدعيني بأغنيات حوريات البحر التي تغري البحار بملاقاة حتفهم.

نظرت إلى عينيه السوداوين فرأت في أعماقهما الحب، والانتصار، والسيادة. فكرت أكرهك.. أحتقرك.. وأحتقر نفسي على ضعفي..

قال فجأة وكأنه يخاف من مشاعره:

ـ علينا أن نذهب وإلا..

هبّت واقفة تشعر بالمذلة. لماذا يقوم هو دائماً بالرفض بينما تعجز هي عن الإتيان بأية مقاومة؟ ترى ماذا يعتبرها دونقان؟ امرأة بلا إرادة وبلا عزة نفس.

سارت على الطريق وهي تتمنى لو يقول شيئاً.

لكنه لم يقل بل أمسك يدها بيده وتابع المسير معها إلى الشاطىء.. وكرهته.. كرهته لأنه برهن أن من السهل إغواءها.. شعرت بالذل ولم تعد ترغب إلا في التواري لتلعق جراح كرامتها التي أهانها للمرة الثانية.. لكنها مضطرة للتصرف بمنطق قدر الإمكان..

في منتصف الطريق، شدها إلى تلة رملية مليئة بالعشب البري،

الذي يمنع الرمل من الانتشار، وجلس قربها يقول:

ـ أنا مضطر للذهاب حالاً. لقد جئت من أوكلاند في طائرة خاصة ما زالت تنتظرني في المطار.. لكنني سأعود.. سأعطيك عنواناً..

قالت والكبرياء تهبّ أخيراً من سباتها:

ـ لا داعي لتزعج نفسك بسببي.. لن أراسلك.

ساد صمت مشؤوم قبل أن يدس أصابعه وراء عنقها ليرفع رأسها إليه.

قال عبر أسنانه:

ـ حقاً؟ ما معنى هذا؟

نظرت إليه رافضة السماح بظهور أي مرارة:

ـ لا شيء.. لست ملك يمينك، وأرفض أن أكون امرأة عابرة في حياتك.

ضاقت عيناه، وأصبحت نظرته شرسة نافذة.. خلف الوجه الوسيم، كان عقله الحاد يسجّل المعلومات التي أوصلتها إليه أحاسيسه.. أخيراً ترك شعرها، وسأل بسخرية لاذعة:

ـ تكرهين نفسك حبيبتي؟

ـ لا شأن لك بهذا دونقان.. لا تضع خططاً تشملني.. لا الآن ولا إلى الأبد.. لا أريد أن أعرف شيئاً.

رفع يداً إلى وجهها.. ثم ضحك بعدما حاولت إبعادها، وقال ببرود:

ـ تكرهين نفسك بسبب ضعفك، وتكرهينني لأنني لم آخذ ما عرضته عليّ بكل كرم.. ولكنني لن أرفض ما تعرضينه عليّ إلى الأبد. فأنا أريدك بمساوئك عشيقة لي..

ردت وقد صفعتها الصدمة: «لا، هذا مستحيل».

سألها بصوت قاس:

ـ ألا تريدين أن تكوني عشيقتي ليندساي؟ أوه.. أعرف أنك لا

تستطيعين ترك لولا حتى تسترد عافيتها كلياً، لكنني أستطيع أن أجيء دائماً لأراك.. وبعدما تستقر الأمور هنا تستطيعين المجيء للسكن في ميلبورن.. سأكون كريماً.. ولن تحتاجي إلى عرض الأزياء، بل سأشتري لك الملابس لتزيني جسدك الجميل.. أما الجواهر فسأشتريها لك ضمن المعقول لأن لا أحد يستطيع أن يستخف بي أو يستغلني.

صاح عقلها: كفى.. كف عن هذا! فجأة غمرها اليأس والعار.. لن تستطيع تحمل كلامه! ولكنها مضطرة. إنه جزء من عقوبة فهو بهذا يوضح رأيه فيها..

أردف بوحشية: «تأكدي أنك لن تخسري معي أبداً».

هبت واقفة وهي تصيح: «لا».

ظلّ جالساً، ينظر إليها نظرة مهينة.. ارتفع حاجبه الأسود واستند إلى مرفقه:

ـ ترفضين؟

بدا ضخماً وأسود أمام العشب الرفيع.. إنه كالوحش المفترس ينتظر أية حركة لينقض على فريسته.

قال برقة: تعالي إلى هنا.

إنه يريد أن يثبت لها مدى ضعفها.. حسناً، لن تسمح له.. يا إلهي أعطني فقط السيطرة على النفس.. اشتدت عزيمتها فنظرت إليه بتحد.. لو لمسها لضاعت ولكنه لن يلمسها. إنه يريد أن تنصاع له بقوة جاذبيته ليراها راكعة أمامه، ضائعة، عديمة الإرادة.. ضائعة الكرامة ذليلة، لأنها لا تستطيع مقاومته.

صمدت إرادتها وما هي إلا لحظة حتى تمكنت من إيجاد القوة لتقول بكبرياء:

ـ لست ممن يقبل بأن يكون دمية دونثان.. آسفة.. لكن هكذا هو الأمر.

ـ أوه.. لكنك موهوبة.. وإذا كانت الحياة الخالية من العمل

تضجرك، فلن أمانع في عودتك إلى عرض الأزياء شرط أن تكوني لي..

أغمضت عينيها، منزعجة من وقاحة عرضه.. وقالت مرة أخرى: «آسفة».

ثم ارتدت إلى الشاطىء مجدداً.

كانت الشمس على وشك الغروب، والهواء ساكن بارد.

سارت بحذر ولكنها كانت تتأمل البحر ففي قلب الموج زوج من طيور آكل المحار، راقباها حتى أصبحت قريبة منهما نسبياً.. فطارا بعيداً وانضما إلى سرب من الطيور الأنيقة المخططة.

في البداية تركت رأسها مطأطأ تراقب النماذج المحفورة على الرمال، النماذج التي خلفتها الأمواج المتراجعة.. ثم شعرت بقشعريرة باردة بين كتفيها فعلمت أنه ما زال يراقبها.. رفعت رأسها وسوت كتفيها ثم ابتعدت عنه حتى بدون أن تنظر إلى الخلف.. تابعت الطريق مروراً بالبيت الذي تجاوزته وقصدت كهفاً صغيراً تحت قدمي بوابة الخليج الجنوبية.. هناك بقيت حتى غابت الشمس، وحتى رحل دونثان.

***

٩ ـ الحب لا يميت

كان الخريف طويلاً دافئاً وجافاً نسبياً. كانت أيامه رائعة فيه السماء زرقاء ذهبية ولياليه برّاقة فيها النجوم تشكل عقداً ألماسياً.

إنه طقس رائع لعمال البناء.. لم يعترض أحد على مشروع التنمية، حتى أكثر المتمسكين بالمحافظة على البيئة كانوا مسرورين بالعناية التي يبديها المسؤولون عن المشروع. بعد وقت قصير من رحيل دونقان بدأ العمال بالتوافد إلى المنطقة.

أصبح هدوء رانجيتاتاو من الماضي.. كان العديد من الرجال يحبون صيد السمك، وقلة منهم كانوا يركبون الأمواج متحدين قوتها مع العلم أن المياه في هذا الوقت باردة على السباحة.

ثم وصلت الفرق الكبيرة.. وامتلأ الجو بالغبار والضجيج يساعدها على ذلك البولدوزرات الضخمة التي مزقت الأرض، والجرافات الضخمة التي تجمع التراب في أكوام فوق العشب.

نمت قرية من نوع ما، فقد اصطفت غرف لإقامة الرجال وقاعة اجتماعات كبيرة.. في بعض الأوقات كان يأتي رجال يقرعون الباب طالبين الإذن باصطياد الأرانب على أرض المزرعة ولكن توماس رفض جميع الطلبات، ولاحظ أن هناك لافتات تحذر العمال من التعدي على أملاكه وهي منتشرة حول حدود المزرعة وقد علق على هذا وقت العشاء في إحدى الليالي.

ـ الواضح أن الإدارة أعطت الأوامر بوضع هذه اللافتات.

بدت الدهشة على لولا: «دونقان؟ هذا حسن اهتمام منه».

استقرت عينا زوجها لحظة على وجه ابنته..

ـ أجل.

كانت ليندي قد فقدت الوزن الذي اكتسبته في الأشهر الماضية، وعادت إلى نحول عارضة الأزياء مجدداً.. وهذا لا بأس به للمصورين ولكنه أحبها أكثر كما كانت في الصيف، سمراء، مرحة، مفعمة بالحيوية.. أما الآن فتحمل ظلالاً حول عينيها وفيها شيء حيوي انطفأت ناره.. لقد تقوقعت على نفسها تقوقعاً جعلهم لا يستطيعون أن يطالوها، وكان يتألم من أجلها ولكنه لم يكن يستطيع تقديم المساعدة.

قالت لولا بصوت هش:

ـ ليتهم وضعوا لافتات تقول «ممنوع الصفير»... عندما مررت بسيارتي في المخيم، تلقيت وابلاً من صفير الذئاب.. أعرف أن هذا نوع من المزاح.. لكنني أجده..

وتلاشى صوتها... بعد لحظة قالت ليندساي:

ـ مهدداً؟

ـ أجل.. هذه هي الكلمة بالضبط.

عبس توماس:

ـ يبدون لي زمرة مهذبة من الرجال.

في اليوم التالي، أخذ اللاندروفر واتجه إلى حرج الصنوبر.. وقال لهما بعد ثلاثة أسابيع إن الطريق عبر الصنوبر سالكة وهي تفضي إلى الطريق العام إذا أرادتا المرور من هناك.

سألت لولا بمكر:

ـ مجاملة من دونقان؟

قال توماس بفظاظة: «لا! كنت أنوي تأهيلها منذ مدة.. وهي صالحة الآن. إنما كونا على حذر وأنتما تمران بين الأشجار».

هذا ما جعل الأمور أقل رهبة.. خاصة وقد أصبح المرور على طريق المنطقة الرئيسية مستحيلاً لأنها تُجهز لتصبح بالمستوى المقبول للسياح الذين سيقضون إجازاتهم في رانجيتاتاو. كانت الآلات تعمل على تزويد المكان بطريق سياحية منعطفاتها واسعة ولها جسور محاطة بحواجز آمنة.

لقد ذهبت إلى الأبد الراحة والحرية.. فكرت ليندساي بهذا وهي تراقب الرجال الذين استخدمهم والدها لغرس ثلاثة صفوف من الأشجار الصغيرة، يدعمها خط من قصب البامبو العملاق الجذور على طول الحدود. يقول إنه مجرد مصدّ للريح وإنه كان ينوي إقامته منذ سنوات.. ولكن الجميع يعرف أنه حاجز لحمايتهم من «قطعان» الناس.

دافعت عن نفسها حين مازحها جايمي بشأن هذه الكلمة «قطعان»:

ـ حسناً أنظر إليهم.. أوه.. أنظر حولك!

ولوحت بذراعها إلى المنظر أمامهما.. فقال جايمي ملاطفاً:

ـ تصوريها بعد خمس سنوات.

ـ ستكون كلها مطاعم وزيت للاسمرار!

ابتسم:

ـ أنت منحازة ضد المشروع، أليس كذلك؟

انفرجت شفتاها عن تنهيدة:

ـ أجل.. لا تقل لي إنها أنانية.. أتعرف جايمي أنه حين أخذتني أمي إلى أوستراليا بكيت مدة سنوات كل ليلة شوقاً للعودة إلى هنا؟

تفهم وأشفق على الفتاة الصغيرة المرتبكة التي كانت الضحية البريئة لمأساة والديها فقال:

ـ لقد أصبحت كالجنة بالنسبة لك.. بل مثل المدينة الفاضلة التي لا يمكنك الوصول إليها.

ـ آه! أجل.. أنت تعرف! وكيف عرفت؟

ـ لكل شخص مدينة فاضلة في حياته.. مكان، أو حلم، أو شخص.. وها أنت الآن تشعرين بأن مدينتك تندمر.

أربكتها هذه الدقة في الملاحظة قليلاً، ولكن حين تأملت وجهه لم تجد شيئاً.. فاضطرت إلى تقبل ملاحظته على ما هي عليه ووافقته الرأي.

ـ بالضبط هكذا.. ولقد عدت لأطلق سراح التنين.. لكن في هذه الحالة كان «بولدوزر» من نوع «كاتربيللر».

ضحكت لها عيناه الزرقاوان:

ـ هراء! أوه.. أفهم تعاستك.. لكن هذا كان سيحدث عدت إلى هنا أم لم تعودي.. لقد قال راسمسون إن المشروع كان قيد الدرس منذ ثلاث سنوات، هذا ما أكده لي توماس.

شخر جواد ليندساي برقة، ثم حرك أذنه ليطرد ذبابة.. بعد لحظة أطرق برأسه ليقضم العشب؛ ليس لأنه جائع بل ليسلي نفسه.

رفعت ليندساي كمي بلوزتها الحمراء حتى المرفقين وقالت:

ـ أعرف.. أعرف.

ولكنها كانت تشعر بطريقة ما أنها السبب في هذا الدمار الذي أصاب رانجيتاتاو.. وهذه سخافة بالتأكيد.. لكن الألم المرير الذي تسببه علاقتها بدونڤان أصبحت متصلة باغتصاب الشاطىء والخليج.. وهي تلومه على كلا الأمرين..

ولكن دونڤان لن يعود.. فرغم قلة خبرتها في تنظيم أعمال البناء كانت مقتنعة بأنه كائناً من يكون مالكاً مديراً، فهو نادراً ما يقصد مواقع العمل.

لكن حتى ينتزعوا اللوحات الضخمة التي تحمل اسم «راسمسون هولدنغ».. لن تتمكن من الهرب منه.

هزت الجواد الذي رفع رأسه فحثته على المسير ثم قالت بدون أن تنظر إلى جايمي.

ـ من الأفضل أن نعود وإلا تأخرنا على الحفلة.

قال بهدوء وقد أحس بشيء من القلق في مزاجها:

ـ لسنا مضطرين للذهاب.

ـ بل علينا أن نذهب.. فماغي ودايف لن يسامحانا إن لم نذهب.. على أي حال سنمرح قليلاً.

وهكذا كان.. كان المضيفان ودودين ضحوكين.. رقصت ليندساي وضحكت محاولة إقناع نفسها بأنها تمرح..

لن تلبس ثياب الحزن إلى الأبد.. في هذه الأيام لا تموت النساء من الحب ولا تلتزمن الأديرة. إنهن يلتقطن زمام أنفسهن، ويمضين في الحياة، طامسات الماضي بكل حزم.

وهذا بالضبط ما ستفعله حين يتلاشى هذا الألم المستمر الذي يأكل حيويتها.

مرت لحظة سيئة واحدة في الأمسية ولكن حتى هذه لم تكن مشتتة لعزيمتها، لأنها كانت تتوقعها منذ ظهر شعر مالينا قالي الأشقر أمامها.

حين قال الصوت الحاد المرتفع بوضوح وبقليل من اللؤم:

ـ آه.. ليندي.. ماذا حدث لذلك الرجل «اللذيذ» الذي كنت برفقته في حفلة سوفتهيد؟

كان من السهل على ليندساي أن تبتسم، وأحست بالفخر لأنها ابتسمت:

ـ لقد عاد إلى أستراليا.. وأنا آسفة مالينا، لكنه رجل كبير.

ارتعشت مالينا ارتعاشة مصطنعة.. كانت عينا الدمية واسعتين وحادتين.

ـ أعرف أنك تضحكين مني لأن الرجال الكبار يعجبونني. لكن ألا يعجبونك أنت ليندي؟

التفتت إلى جايمي الذي كانت ذراعه حول خصر ليندساي وأردفت برقة:

ـ أعني.. جايمي ليس صغير الحجم.. أوه.. أنظري، لقد جعلتك تحمرين خجلاً! أما زلت تخجلين؟

رفعت ليندساي حاجبيها:

ـ ما قصدته بكبير، إنه «مهم» فعندما يكون صاحب امبراطورية صناعية وتجارية فهو مضطر للتحرك بسرعة.

ـ آه! بدا لي سريع الحركة.. أمن الممكن أن يعود؟ أعني بدوتما وكأنكما متعارفان بشكل جيد.

اشتدت ذراع جايمي على خصرها، لكنها تمكنت من الابتسام وردت بلطف:

ـ ليس كثيراً.. دونڤان قانون بحد ذاته، لكنه سيأتي إلى هنا للزيارة.. فهل أتصل بك إن زارنا؟

ضحكت مالينا ولم تستطع منع نفسها من القول:

ـ لا.. لا أتوقع منك هذا ليندي.. أعني الأخوة شيء رائع، لكن حين يصل الأمر إلى الرجال...!

حسناً.. لن تنكر ليندساي عليها فرصة إنقاذ ماء الوجه.. وهذا ما يجعلهما متساويتين.

عندما كانت وجايمي على وشك الوصول إلى المنزل قال بعفوية:

ـ تبدو مالينا مستكلبة على دونڤان راسمسون.. ألست على وفاق معها؟..

ـ أوه.. أنت تعرف مالينا.

ـ يعرفها الجميع.. إنما لماذا تلومك إن لم ينجذب الرجل إليها؟

ـ لن تستطيع لوم نفسها.. أليس كذلك؟ فهذه ليست عادتها.

طمأنتها ضحكته الخفيفة:

ـ هل كنتما تتشاجران في المدرسة؟

ـ آه.. أجل. كنا ننظر إلى بعضنا بعضاً وما هي إلا نظرة واحدة حتى يقع الشجار.. أظن أن سبب كراهيتها لي الآن هو أنني كنت بشعة

في المدرسة وكانت هي في غاية الجمال جداً. . مع ذلك أصبحت أنا عارضة أزياء وهي لا شيء ولكنها كمعظم الناس لا تدرك أن الجمال الشديد ليس ضرورياً في الواقع.

تسللت أنوار السيارة الأمامية على العمودين البيضاوين عند نقطة توقف الماشية ثم توقف جايمي وأطفأ الأنوار والمحرك. . كان السكون شاملاً. . والليل مظلماً حتى بدا سواده ملموساً. . كانت الغيوم قد غطت السماء ولا أثر للريح. .

قال جايمي: «ما زال شخص ما مستيقظاً أم لعلهم تركوا لك النور مضاء؟»

ـ لا. . إنهما مستيقظان. . فهذا نور غرفة الجلوس. . وأرجو ألا تكون الطفلة هي السبب.

ترجل من السيارة ثم ارتد إليها يقول بتفهم:

ـ أسنانها تنمو؟

ـ نعم، ربما.

توقفا أمام الباب ثم رفع ذقنها بيده:

ـ لن أدخل. . مهما كان شكلك في المدرسة الابتدائية فأنت الآن أجمل بكثير.

لم يعر جايمي احتجاجها الصامت التفاتاً وضمها بين ذراعيه. . فتشنجت ثم سرعان ما سمعت أصواتاً وتعرفت إليها.

عندما فتح توماس الباب رأى ابنته بين ذراعي جايمي في عناق لا يمكن أن يساء فهمه.

وكأنما صوت انفتاح الباب استغرق وقتاً ليزيل الضباب عن تفكيرها. فمررت نفسها ببطء وارتدت إليهما شاحبة الوجه بارقة العينين اللتين راحتا تنتقلان من أبيها المجفل إلى الرجل الواقف قربه.

قالت بأنفاس مقطوعة قليلاً:

ـ مرحباً دونڤان، هل جئت في زيارة؟

ربما أقنعت جايمي أن لا شيء بينها وبين الرجل غير التجاذب الطبيعي بين الجنسين. . لكنها فعلت هذا دون تعاون من دونڤان. . وما هي إلا نظرة إليه حتى تبين لها أنه غاضب غضباً قاتلاً شديداً. . خافت البريق الحارق في عينيه السوداوين وارتفاع خط فكه القاسي ولكنها في الوقت ذاته شعرت بالسعادة لوجوده.

انتظرت حتى انتهى والدها وجايمي من تبادل بضع جمل لا معنى لها. كانت مطأطئة الرأس ولكنها كانت تراه ببشرتها. . راح الغضب الشديد يخبو لكنه ما زال موجوداً. . وعرفت أنه يراقبها.

فجأة ارتعشت، فقال جايمي:

ـ آسف، ما كان عليّ أن أبقيك في البرد خارجاً. . أراك غداً ليندي.

ـ أجل.

كانا قد قررا القيام بنزهة سيراً على الأقدام مع جمعية الغابات والطيور في الغابة التي تطل على المناظر الساحلية الرائعة وكانت تتطلع بشوق إلى الرحلة. . ولكنها فجأة، فقدت الرغبة في الذهاب. نعم دونڤان يحتقرها ولكن وجوده يجعلها تضج بالحياة وهي تريد أن تكون حيث يكون.

لكنها ستذهب.

وذهبت. . كان يوماً جميلاً بارداً قليلاً، بحيث لم تكن المسيرة فوق أكثر التلال الشمالية انحداراً مرهقة. . وأشرقت الشمس من سماء مزدانة بغيوم كبيرة هشة. . لقد جلب لها السير في الغابة صفاء ذهن محدد، ورفيقها مثيراً للاهتمام. . هي تستمتع دائماً حين تكون مع جايمي. . إنه محبوب، قوي كالصخرة تحت واجهته الهادئة، غير متطلب.

ولكن في طريق العودة بدأ بريق ذلك اليوم يخبو. . فقد عرفت ليندساي أنها إنما أخرت المواجهة التي تخشاها قليلاً ولم تتجنبها. .

وعرفت أنها تفضل القتال مع دونقان على صحبة جايمي.. أو أي رجل آخر.

كان ينتظرها على الشرفة بعد خروجها من الحمام، ساقاه الطويلان ممتدتان أمامه ويداه إلى الأمام.

ـ أين لولا؟

هبَّ على قدميه بعجرفة:

ـ خرجت مع جون ليلتقطا الزهور.. وأنا أجالس الطفلة.

ـ آه.. سأذهب لأساعدهما.

ـ لا.. ستبقين هنا وتصغين إليّ.. كنت أبحث في نفسي بضعة وقائع، ولقد عرفت شيئاً لا بأس به عنك، ليندساي.. يا حوريتي البريئة.

قالت بسخط:

ـ لا تنادني هكذا.

وابتعدت عنه، فأمسك كتفيها وضمها إليه بعفوية. كانت ذراعه كسياج حديدي فارتعشت ارتعاشة فاجأتهما معاً.. فاشتدت ذراعه عليها ثم استرخت.. ثم قال ببرود:

ـ إما أن تبقي هكذا ونحن نتحدث وإمّا أتركك فأيهما تفضلين؟

ردت بجفاء:

ـ بل أفضل أن تتركني.. سأصغي إليك، لكن لا تتوقع مني الموافقة على أية شائعات سمعتها عني.

ـ ليس هناك شائعات..

انتظر حتى جلست، ثم أردف:

ـ في الواقع، لا شائعات.. لم يكن الجميع مقتنعاً أنك وأريك هوبر كنتما عشيقين مع أنه بذل جهده ليعطي هذا الانطباع.

نظرت إليه ساخطة وكانت تعابير وجهها مكبوتة بحيث بدت كدمية من بورسلان.. لكنه أردف:

ـ لقد وضعت حداً لكل هذا.. ولسوف يبقي لسانه اللتن مطبقاً من الآن وصاعداً.

قالت ساخرة: «أنت لطيف جداً!»

ضحك: «أنت لا تكرهينه.. مع أنه خانك. أتعرفين أن غيرته مني عندما رآك معي جعلته يفضح نفسه أمام كريس؟»

فجأة غيّر الموضوع إذ سألها:

ـ هل كنت تحبين أمك ليندساي؟

ولأن الموضوع تغير برمته قالت مجفلة: ماذا؟

ـ كيف كانت أمك؟ كانت تكره الحياة هنا ولكنها تحملتها لسنوات لذا أفترض أنها كانت عازمة على شيء ما.. أعرف أنها دفعتك إلى مهنة عرض الأزياء كما أعرف أنها كانت تعمل.. فقد استنتجت أنها كانت تكره أن ينفق عليها توماس بسبب عزة نفسها. ولا شك أنه كان لديها مُثُل أخلاقية قديمة، لأنك ما زلت غير قادرة على التغلب على تعاليمها المبكرة.. ألست هكذا؟ لقد ظننت أنك تحبين أريك، مع ذلك أبقيته معلقاً حتى يئس وكرهتني لأنني أجعلك..

اندفع الدم إلى رأسها بسرعة لم تدرك معها أنها تتحرك. وقفزت واقفة ويداها على أذنيها.. وصاحت وهي ترتدّ هاربة:

ـ لا!

أمسكها مجدداً.. وقال بلا رحمة:

ـ بلى.. وتعرفين هذا.. ولكن لسبب ما ترفضين مواجهة الحقيقة. لن نصل إلى أي شيء بدون الصدق.. لماذا ترفضين الاعتراف بأنك تذوبين حين ألمسك وتنسين كل ما علمتك إياه أمك؟ لماذا؟ ألأنك تحاولين الوصول إلى الاكتفاء الذاتي العاطفي الذي كانت أمك فخورة به؟

لن تسامحه على هذا.. أبداً! إن مثل هذا التحليل مكانه عيادة طبيب نفسي.

سألت بإرهاق:

ـ ماذا تحاول أن تفعل؟ أن تدمرني؟ لا شأن للعواطف برفضي أن أكون عشيقتك.

ارتعشت عضلة صغيرة قرب فمه الجميل وهو الدليل الوحيد على الإنسانية في القناع المنحوت على وجهه:

ـ هذا ما تريدين أنت أن تصدقيه.. لكنك تعرفين كما أعرف أنا أنه غير صحيح.. فبيننا شيء غريب مزيج من المشاعر ولكنك بدل ذلك ترين نفسك امرأة غير شريفة والسبب أنك تستجيبين لعناقي.

ـ نعم هذا ما أشعر به.. فماذا تريد؟

انتفضت من الألم عندما اشتد ضغط يديه على معصميها.. ثم تحررت. رماها عنه وكأنها تلوثه فوقعت على الأريكة الخيزرانية.

قال وهو يسيطر على نفسه ببرود:

ـ حسن إذن.. ما دمت ترين نفسك امرأة غير شريفة سأعاملك هكذا.. كم تعتقدين أن «خدماتك» تساوي يا سيدتي الجميلة ليندساي؟

همست بشراسة: «كف عن هذا.. أرجوك، دعني وشأني».

ـ لماذا؟

أجبرت يده القاسية ذقنها على الارتفاع إلى فوق.. فرأت في وجهه مشاعر قوية جعلتها ترتجف خوفاً لم يسبق أن شعرت بمثله قط.. كان شاحباً وغاضباً غضباً عظيماً وكانت عيناه تبرقان بلهيب من الغضب.

تذكرت أنها تساءلت يوماً عن البريق الأحمر القاتم في شعره.. وعرفت الآن أن تلك السيطرة المهيبة على النفس تخفي طبعاً ناراً عنيفاً، مرعباً.

قال وأصابعه تتسلل إلى فكها، بمداعبة، وتهديد:

ـ إذن، الآن حبيبتي.. فلنتحدث عن الشروط.

أغمضت عينيها وراحت تقاوم بيأس لتهدأ.. لقد أوصلها غباؤها إلى هذا الطريق.. الغباء والرغبة في أن تجرحه، وها هي تحصد العاصفة.. لم تكن بحاجة إلى التفكير في موقفها لأن غريزتها حذرتها بأنه على وشك استخدام العنف الحقيقي، وأنه قد يستمتع بأي عقاب ينزله فيها.. كانت تحس بقوة أصابعه النحيلة التي تمسك ذقنها.. ورغم الذل الذي يحدق بها لانت مشاعرها ورقّت.

قالت بصوت أجش: «سبق أن تباحثنا في هذا وما زلت عند قولي، دونقان».

أحنى رأسه ثم عانقها فذاب قلبها وتعلقت به ولكنه سرعان ما ابتعد.

كان صوته عميقاً وخالياً من المشاعر:

ـ لا.. كلما اقتربت منك أحدق بي الخطر.. أظن أن علينا تسوية بعض الأمور أولاً.

أجفلت ليندساي فقد خذلها جسدها مرة أخرى فتألمت إحباطاً.. وراحت تراقبه مديراً ظهره لها إذ كان ينظر إلى الخليج في الخارج حيث تغني الريح أغنيات موحشة.

كانا غارقين في الشجار فلم يلحظا أن الشمس رحلت تختبىء وراء غيوم متقلبة، رمادية.

بعد قليل التفت إليها وعيناه الباردتان تستريحان على وجهها برقة. قال: «لقد عادت لولا».

* * *

١٠ ـ كما يعود الربيع

بعد تلك الأمسية عاملها دونڤان بشيء من اللباقة والجفاء فتقلبت مشاعرها ما بين الشراسة والوحشية، والغضب، والشوق.. كان يمضي معظم وقته في مواقع العمل أو في اجتماعات مع المجلس البلدي وقد قام ببضع رحلات إلى «ويلنغتون» لمناقشة الأمور مع الحكومة، ولكنه في طريق العودة قضى يوماً وليلة في أوكلاند حيث ترك لسكرتيرته الخاصة ما يكفي من عمل ثم قرر قضاء الإجازة في رانجيتاتاو.

صباح السبت قال وقت الفطور:

ـ عليّ أن أذهب فعندي التزامات أخرى.

استقرت نظرته لحظة على ليندساي المطأطئة الرأس ولكن حين رفعت رأسها وجدت نظرته قد انتقلت لتضحك على جون الذي تذمر لأن مثله الأعلى سيرحل وقال مطالباً:

ـ عد لقضاء إجازة دونڤان.. أرجوك.. سآخذك في رحلة بحرية في قاربي.

ولم يصغ جون وحده للرد بلهفة بل أرادت ليندساي رغم غضبها من نفسها أن تعرف موعد عودته.

قال بدون أن يلزم نفسه:

ـ سأعود في وقت ما.. أعدك.

في تلك الأيام القليلة كانت مجبرة على الاعتراف بأنه أصبح أكثر من مهم لروحها.. كلما كان يتواجد هناك كانت تشعر أنها حية نشيطة،

مع أنه منذ شجارهما الأخير وهو يتجنبها.

كان ذلك اليوم غائماً.. وهو يوم حسن لصيد السمك.. هكذا خرج توماس ودونڤان لينهيا الأمور المستعجلة في المزرعة قبل الانطلاق في اللانش مصطحبين معهما جون. أما لولا فوعدت أن تقلي السمك الذي سيصطاد للعشاء، والتفتت إلى ليندي تسألها رأيها في القيام ببعض الأعمال في الحديقة.. فالسماء على وشك أن تمطر وهي ترغب في وضع السماد قبل المطر وهذا يعني إزالة الأعشاب الضارة.

حسناً.. إنها تفضل القيام بأي شيء على الجلوس كئيبة.. تمنت لو أنها لا تذهب إلى حفلة عائلة روبنسون هذا المساء مع جايمي.. فهي تريد أن تبقى في المنزل مع دونڤان لتشبع عينيها منه.

ولكنها مضطرة إلى الذهاب، فعليها أن تتأكد من أن جايمي لم يأخذ عناق الأسبوع الماضي على محمل الجد..

أوه.. إنها معجبة بذكاء جايمي وتستمتع بحديثه وتجده مسلياً.. هو رقيق يشاركها معظم اهتماماتها، ويناقشها فيها بأحكام مجردة.. لكن ليس هذا هو المهم.

دفعت يدها المغطاة بالقفاز شوكة الحفر إلى الأرض، وخلعتها بقسوة، وأخذت تنقب العشب منها..

عضت شفتها.. ببساطة، لا يمكن للمرء أن يقع في حب شخص يعامله كما يعاملها دونڤان.. هل هذا ممكن؟

لا.. ليس حباً هذا الذي تشعر به بل رغبة سرعان ما ستخبو حين يرحل بل يجب أن تخبو.

بعد الغداء كتبت رسالة ثم ساعدت لولا في تحضير جزء من العشاء، وشاهدت بعض البرامج التلفزيونية وهي تقوم بأي شيء لتبعد أفكارها عن الرجل الذي أخذ يصبح وسواساً.

عاد الرجلان منتصرين فقد كانا يحملان ثلاث سمكات كبيرة.. إحداها اصطادها جون.. لا.. في الواقع لم يلتقطها بنفسه، لأن سمك

«الهابوكا» يعيش في الأعماق، وهو ثقيل على جون الذي لن يستطيع سحبه.. ولكنه ساعد «دادي» في صيدها.

ضحكت لولا تقبله ثم أرسلته ليستحم ويغير ثيابه ثم طلبت من ليندساي الإشراف عليه.. فأجابت:

ـ طبعاً.. تعال أيها الصياد الشجاع.. وأخبرني عن الأسماك التي فرت منكم.

ـ لكن لم يهرب منا شيء ليندي.. التقطناها كلها.

جاء صوت دونڤان بارداً شريراً:

ـ لا بأس جون.. فهذا يحدث للجميع، عاجلاً أم آجلاً.

تجمدت ليندساي ففي تعليقه معنى محدد لاحظه جون إذ قال:

ـ لكن هذا لم يحدث لنا اليوم دونڤان.

ـ إنه لأمر جيد أن يدرك شخص صغير أن لا أحد يكسب كل شيء في كل الأوقات.. أجل، حتى أنا جون ومحبوبتك ليندي.

ابتسم ليمر بهما متوجهاً إلى غرفته.

هكذا إذن.. لقد أوضح كل شيء.. لقد قرر ألا يزعج نفسه بملاحقتها بعد الآن.

بعدما ساعدت جون في الاستحمام تناولت العشاء الذي بدا طعمه كورق الكرتون في فمها.

قال دونڤان لمضيفته:

ـ وجبة لذيذة... شكراً لك! أنت إحدى فضلى الطهاة في العالم.

ابتسمت لولا على اطرائه وامتلأت أساريرها بالفرح.

ـ أنت مغازل لعوب دونڤان.. لكنني لا أمانع في هذا.. ما أسهل أن يبدو الإنسان بحالة جيدة إذا كان يشعر أنه بحالة جيدة.. خاصة وأن ابنة زوجي تراقبني بعين صقر لدى أية بادرة تعب.

وابتسمت بمحبة لليندساي:

ـ عندما وصلت ليندي إلى هنا، كنت في حالة سيئة. ولكنها هي

وتوماس دللاني وأحباني فعادت إليّ عافيتي.

لم يكن دونڤان مهتماً بغير الحديث. سأل:

ـ إذن أنت مستعدة الآن للعودة إلى صهوة الجواد؟

ـ أجل.. بالأمس أذن لي الطبيب.

ابتسم لها: «أنا مسرور من أجلك».

ثم التفت إلى ليندساي يسألها برقة:

ـ وماذا ستفعلين ليندساي بعد الرحيل من هنا؟

ـ سألتحق بالجامعة لأدرس الحقوق.

شعرت بالرضى الكامل بسبب الذهول الذي بدا عليه.. سرعان ما تلاشى الذهول ولكنها نجحت على الأقل في إذهاله.

ـ هذا جيد لك.. وسيُشغل وقتك في السنوات القادمة.

ربما هي حساسة أكثر من اللازم ولكنها تكاد تسمع المعنى عالياً وواضحاً: لتكوني بعيداً عن ظهري.

حسناً.. ستكون مسرورة كثيراً إن لم تره مجدداً.. رفعت عينين باردتين صافيتين إليه فرد عليها بابتسامة ممائلة.

ـ أريد أن يكون وقتي ممتلئاً.. فهذا طموح طال انتظاري له.

ـ أليس لديك طموح الزواج؟

ابتلعت ليندساي ريقها بصعوبة.. للحظات استحوذت عليها عاصفة مشاعر تألفت من رغبة وكراهية وألم..

قالت: لا.. أبداً.. فأنا لم ألتق حتى الآن بالرجل المناسب..

أحست بالامتنان العميق لرنين الهاتف الحاد، لكنها لم تكن ممتنة حين قال دونڤان إنه ينتظر مكالمة، ولحق بها إلى الردهة حيث اتجهت لترد.

قال جايمي عبر سماعة الهاتف:

ـ ليندي.. أنا آسف.. لكنني لن أستطيع الحضور الليلة. أصيب كلب جوش العجوز بانفلونزا، وكلبة ديما كريتون التي استوردتها من

أوستراليا تلد.. وديما متعبة لسوء الحظ.. نعم هي ماهرة كبيطرية ولكنها تريد مني أن أكون هناك.

رفعت ليندساي نظرها فالتقت بالازدراء البارد في عيني دونڤان.

قالت لجايمي: عليك مساعدتها بالتأكيد.. لا تفكر في الأمر مرتين.. في الحقيقة لا أجدني متحمسة كثيراً للذهاب.

في صوت جايمي رنة راحة:

ـ أنت محبوبة.. إلى اللقاء الآن.

قال دونڤان وهي تهم بوضع السماعة:

ـ محبوبة؟ بإمكاني التفكير في أشياء كثيرة أصفك بها، أما محبوبة فليست إحدى تلك الصفات.. قد أقول ممازحة، عابثة، مثال الإغراء.. أوه.. ثمة صفات كثيرة لامرأة مثلك.. هل تتمتعين بتحطيم قلب هذا المغفل؟

صاحت به: «لا تكن مضحكاً مبكياً هكذا، فالقلوب لا تتحطم دونڤان.. ولا أشك أنك تعرف ذلك».

حاولت الابتعاد عن وجوده الخانق ولكنها فشلت إذ وضع يده على مرفقيها وجذبها إليه حتى أحست بأنفاسه على جبهتها.

تمتم:

ـ أنت محقة. إلى أين كنتما ذاهبين الليلة؟

قالت بفظاظة وبدون أن تنظر إليه:

ـ إلى حفلة تقيمها عائلة روبنسون.

ـ سأرافقك أنا إذن.

هزت رأسها: «لا.. لا يهم».

انسلت يداه إلى ذراعيها: لماذا؟

ـ لا.. لا أريد أن أذهب.

ـ لأنني سأرافقك؟

ـ أجل.. لا أريد الذهاب بدون جايمي.

اشتدت أصابعه على الذراعين الصلبين معاقباً إياها على هذا التحدي الذي تطلقه.

ـ هذا مؤسف.. لكنني مصمم على مرافقتك، على أي حال لا أظنك تهتمين كثيراً مع أي رجل تذهبين؟

حين لم ترد أردف:

ـ لا أتوقع مكافأة على مجهودي، ولا حتى عناقاً كذلك الذي كنت تتبادلينه مع جايمي بحماس في الأسبوع الفائت.

رفعت بصرها إليه.. ولم تعد تجرؤ على إبعادهما.. سيجعل من المستحيل عليها الابتعاد عن الحفلة..

قالت بصوت مخنوق: «حسناً..».

ـ فتاة طيبة! هيا استعدي.. سنذهب بعد نصف ساعة.

من سمعه قد يعتبر كلمته نوعاً من القبول العادي.. ولكن أذني ليندساي التقطتا الرضى المتواري تحت الصوت الهادىء.

كان الزوجان دايفي وجيسي روبنسون في أواسط العمر.. استقبلا ليندساي بحرارة صادقة وتحمسا لدونڤان، ولكنهما لم يخفيا مكرهما لأنها التقطت مثل هذا الصيد الثمين.. ارتفعت معنويات ليندساي إلى درجة المزاح والتفتت إليه، فتلاقت عيناها بوجهه الضاحك.

وكانت هي اللحظة الوحيدة السارة في أمسية سرعان ما انقلبت إلى كابوس.. فقد كانت مالينا هناك تجرّ معها شاباً مألوف الوجه بالنسبة لليندساي ثم سرعان ما أصبح مألوفاً أكثر لها بعدما لمحت مالينا رأس دونڤان المرتفع فوق رؤوس الجميع، ووصلت إليه وعيناها الزرقاوان المستديرتان ترمقانه بطريقة مدروسة.

قالت مالينا: «هاي! أتذكرني؟»

قال بصوت دافىء فيه شيء من الدعابة والضحك:

ـ وكيف لي أن أنساك؟

ابتسمت مالينا برضى ظاهر:

ـ قد تنساني بسهولة على ما أرى.

قدمت الشاب المرافق لها باسم روسل، وعادت إلى الهجوم:

ـ أين جايمي؟

ردت ليندساي بهدوء: «استدعي للخدمة».

ارتدت العينان الواسعتان الزرقاوان إلى وجه ليندساي الحزين بدقة، ثم إلى دونڤان.. وما رأته في وجهه أسعدها، إذ سرعان ما أصبحت غير متحفظة، ليس هذا فقط بل كان دونڤان يستجيب لها ويعبث معها بسحر تذكره ليندساي جيداً.. ورغم جو الحنكة والدراية فقد راحت مالينا تتورد وبدت كالمسحورة وكانت عيناها بارقتين من الإثارة الحية وهذا ما جعل ليندساي تهمّ بالبكاء.. لا شك أنها بدت مذهولة هكذا ليلة عرس مومّا.

قالت جيسي روبنسون وهي تستمتع بالموقف:

ـ حسناً.. ستحصل مالينا على علامات عالية على جهدها. أتظنين أن على أحدهم أن يحذرها بأن أمثال دونڤان راسمسون لا يتوقعون القليل من المرأة؟

ردت ليندساي: تعي هي أي نوع من الرجال هو.

لم تشعر قط بعدم القدرة على الضحك، وشكرت أمها لأنها أقنعتها بامتهان عرض الأزياء فهذه المهنة زودتها بتجربة رائعة وجعلتها قادرة على السيطرة على تعابيرها.. هكذا ابتسمت لجيسي.. وتابعت بهدوء:

ـ على أي حال.. ما دونڤان بشخص غبي.

قاس، أجل.. لا يرحم، متعجرف.. لكنه ليس غبياً أبداً.

قالت جيسي بهدوء بارد:

ـ لا.. مع أن بعض الرجال ينسون كل شيء عندما يواجهون وجهاً جميل وامرأة راغبة.

قالت ليندساي برباطة جأش:

ـ لا يصل المرء إلى ما هو عليه الآن إن سمح لرغباته في التغلب على حذره.

ـ ألا يعجبك؟

ارتفعت كتفاها الملتفتان بالمخمل الأخضر القاتم بعدم اكتراث:

ـ بلى فهو محبوب كثيراً.. لكنني لا أرغب أبداً في إغضابه، ولن أحاول أبداً هزمه في صفقة تجارية.. ولا خداعه بأية طريقة أو استغفاله ولكنه رغم هذا رجل ساحر فاتن.

قالت جيسي بعفوية: «اطلبي من عائلة غورمن أن تقلك إلى المنزل».

ثم توردت خجلاً وقد أدركت ما قالت.

ـ هذا صحيح.

من لا يعرف ليندساي جيداً، قد يظن الارتعاشة البسيطة في صوتها ارتعاشة تسلية.. وهذا ما فهمته جيسي.

ـ حسناً.. تفهمين قصدي.. تعالي وتحدثي مع ساندي... إنها تحاول لفت نظرك منذ عشر دقائق.

استطاعت احتمال النصف الأول من الأمسية مع أنها احتاجت إلى كل قوة إرادتها وقدرتها على التحمل لتجول في الغرفة وللتحدث إلى الناس مبتسمة، أو للتصرف وكأنها لا تهتم بشيء في الدنيا. وكم شكرت من اخترع الماكياج وما تبقى من مساحيق التجميل الملونة التي منعت وجهها الشاحب من الظهور.

أجل.. لقد مر الجزء الأول من السهرة على نحو مقبول.. لكن ما إن بدأ دايڤي بإظهار آلة التسجيل الضخمة الباهظة الثمن، حتى بدأت الأمور تسوء.. فقد اختار موسيقى راقصة.. وكم كان منظر مالينا المذهولة المسحورة بين ذراعي دونڤان مؤلماً لليندساي التي تمنت لو تزحف إلى زاوية لتموت فيها. كانت تشعر بغيرة قاتلة لم يسبق أن شعرت بمثلها يوماً، حتى عندما شاهدت أريك مع كريستي.. أخيراً

اضطرت إلى مواجهة الحقيقة.. يا إلهي.. أنا أحبه.. الخنزير القذر!

كان أمراً حتمياً لا مهرب منه كعودة الربيع كل سنة إلى الربوع.. سعت ليندساي دوماً وراء الحب بدون أن تدري وكانت تتوق إلى حبيب كامل. حتى عندما كانت أمها تقنعها بأن لا شيء اسمه «حب».. كانت روندة تقول لها دائماً: الصحبة والرغبة هما كل ما قد تتوقعينه من أسعد الزيجات.. فلماذا تتوقعين الأجراس أن تدق والأنوار أن تشع؟

ولكن هذه السخرية المتوحشة من القدر دفعت ليندساي إلى حب الرجل الوحيد الذي لا تتوقع الوقوع في حبه.

أريك داهنها وتملقها لتقبل به.. لكن عندما عرفت أن كل ما كان يريده منها جسدها ذاب الحب الذي حسبته عميقاً.

ولهذا وقعت في حب دونثان.. ربما في ذلك الوقت أحبته بطريقة ما.. أو على الأقل أدركت أن الحب موجود. لهذا قاومته بشدة، ولهذا لم تسمح له باختراق دفاعاتها التي وضعتها بكل عناية.. إن خيانة أريك جرحت قلبها، ولكنها جرحت في الوقت عينه غرورها. واستسلامها لليأس أضعف احترامها لذاتها.. دونثان على حق! فلتعاقب نفسها رفضت الاعتراف بأن في علاقتهما ما هو أكثر من تجاذب يحط من قدرها. لقد أغضبها ما تشعر به من ذل.

قالت جيسي: «وكأن مالينا منحت للتو مفتاح باب الجنة. أوه.. صحيح هي ليست تلك البريئة، ويبدو أنك ستذهبين إلى المنزل مع أسرة غورمن على أي حال.. إنه بكل تأكيد يصب عليها سحره.. أليس كذلك؟ لكن سحره موجود دائماً.. إنه يرفع الحرارة أكثر حين يرغب.

ردت ليندساي وهي تحاول المزاح:

- كالفرن.

- حسناً.. فلنأمل ألا تحترق مالينا في أتونه كثيراً.. ها هو روسل يبدو محروماً.. وأنا مسرورة لأنك تشفقين عليه ليندساي..

فكان أن راقصته ليندساي مرة أخرى ثم رقصت مع رجال آخرين وقامت باستعراض تانغو مع زوي سوفتهيد أثار ضحك الجميع وتهليلهم.. وظنت أنها كانت ترفع رأسها عالياً بحيث لا يدرك أحد أن بؤساً رهيباً يمزقها.

كان دونثان ومالينا في عالم صغير خاص بهما فهما غارقان في النظرات وكأنه يتعمد ذلك.. تقريباً كتعمده عزلها ليلة زفاف مومًا.

كان غضبها منصباً على نفسها لأنها وقعت في حبه بكل غباء.. لكن.. آه.. إنها غيرة مريرة تلك التي تعتم عينيها حين ترى مالينا بين ذراعيه.. عرفت أن النوم سيجفوها الليلة.

ولكن عندما يحل الصباح سيكون عليها الظهور بمظهر المرأة المسيطرة على رباطة جأشها وكأنها لم ترغب في قتله.

هكذا لزمها كل ما لديها من قوة إرادة لتتمسك بالقناع الاجتماعي بحزم في مكانه.. ونجحت نجاحاً تعجبت منه فما أسهل خداع الناس الذين عرفوها طوال حياتها.. حين ظهر جايمي في الحفلة قاومت إغراء يكاد يدفعها إليه لترمي نفسها عليه كأنه منقذها.. ولكن ابتسامتها كانت مشرقة دافئة وهو يحني رأسه ليعانقها ثم راح يتأمل شكلها النحيل في السروال الحريري الطويل والسترة المخملية، والإعجاب واضح في عينيه.

- تبدين جميلة.. كشيء من حريم الملك.

- شيء؟

- كبيرة المحظيات.. تعالي وارقصي معي.. أحتاج إلى أن أحس بقليل من الراحة.

استسلمت بين ذراعيه وعيناها تنظران إلى وجهه القلق:

- أوه؟ ماذا جرى؟

- لقد فقدنا الكلبة.

- أوه جايمي.. أنا آسفة!

أدار فمه إلى اليد التي وضعتها على خده للمواساة وقال:

ـ لا بأس، يحدث هذا عامة.. لكن ديما مستاءة كثيراً.

تغيرت لهجته وهو يتابع سائلاً:

ـ هلاّ أخبرتني لماذا ينظر دونقان راسمسون إليّ نظرات توقف شعر البدن؟

أوه.. بلى.. فلا شيء أسهل من أن تخبره السبب.

قالت: «أظنك أسأت فهم نظرته.. فهو مهتم كثيراً بمالينا كما ترى بأم عينك».

ـ ما أراه أن مالينا هي المهتمة به.. أما هو فلا يُظهر شيئاً.. إنه شيطان وسيم، أليس كذلك؟.. هل يعجبك؟

إنها المرة الثانية في ليلة واحدة تسأل فيها مثل هذا السؤال. الآن وبعدما اكتشفت مشاعرها الحقيقية نحوه، لم تعد تستطيع الرد بسهولة.

قالت بهدوء:

ـ ليس كثيراً.. أوه.. إنه فاتن، ولكن تحت تلك الفتنة صخر صرف.

ـ لولا وتوماس متأثران به.

هزت رأسها، وكانت تجد صعوبة في إبعاد عينيها عن الراقصين في الجهة الأخرى من الغرفة:

ـ إنهما ليسا منيعين أمام سحره كحال المسكينة مالينا.. حينما جاء إلى هنا للمرة الأولى ركز اهتمامه على أن يبدو لطيفاً وعندما اكتشفنا أمر المشروع لم يستطع أبي إجبار نفسه على الاعتراض، لأنه أحبه كثيراً.

سألها بهدوء: «وأنت؟ هل أحببته ليندي؟»

رفعت رأسها فالتقت عيناها بنظرته القلقة وردت باختصار: لا.

تمتم: «هذا ما ظننته».

ودس كلتا ذراعيه حولها يضمها فرد لها القليل من الراحة التي وفرتها له.

ـ مسكينة ليندي! لكنك ستتجاوزينه.. لديك المعنويات والشجاعة.. أعتقد أن الجميع يقع في بعض الأحيان في حب شخص غير مناسب، ولو مرة في حياته.

في صوته ما جعلها تتوقف عن عض شفتها: أنت؟

ابتسم ولكن في ابتسامته مسحة كآبة:

ـ آه! أجل.

ـ ليس؟

ـ لا.. ليس أنت.. ولكنني أجدك مناسبة ليندي. حبي بعيد عن منالي بحيث لا أشعر بالأمل.

تنهدت إذ التقطت المعنى في استخدامه صيغة الحاضر، وهذا ما خفف من مخاوفها في أن يكون متعلقاً بها كثيراً! آه! يا لغرورها.. فكرت ملياً قبل أن تضيف بعطف:

ـ لا أظن أن هناك فتاة بعيدة عن منالك، جايمي! لا تكن انهزامياً.. اذهب إليها وخذها!

ضحك متعباً: «ليس الأمر بهذه السهولة عزيزتي.. ليست فقط بعيدة المنال، بل هناك استحالة في أن نكون معاً.. لكن ماذا عنك؟ لا تقولي لي إنك لم تستطيعي جذبه بعيداً عن مالينا فلو أردت ذلك لتحقق لك مرامك».

قلدت قوله وابتسامتها تلوي شفتيها:

ـ ليس الأمر بهذه السهولة عزيزي.. والآن فلننس كل هذا.. ولنستمتع!

* * *

١١ ـ كل شيء مباح!

إنها كلمات شجاعة تقولها ليندساي.. ولكن محكوم ألا تتحقق.. مع ذلك فمن الأفضل أن يكون جايمي معها ليدعمها في الوقت الذي تجد فيه مالينا ودونڤان مستمتعين مسرورين.

إنه لعذاب مؤلم أن ترى مالينا ملتصقة بدونڤان الذي كانت ذراعه فوق كتفيها وكانت تتطلع إلى وجهه.. ولعل العذاب الأكبر هو أن ترى نظراته السريعة التي لا رحمة فيها نحو ليندساي، وأغمضت عينيها في محاولة دفاع، لكن ليس قبل أن ترى الرضى البارد الساخر في نظرته، ثم التفت ليبتسم إلى مالينا.

يعرف بالضبط ماذا يفعل، وكان يستمتع بمراقبتها تتلوى وكأنها سمكة عالقة في الصنارة، والصنارة عالقة في قلبها. هذا هو عقابها لأنها رفضته.

مرّ في خاطرها بيت شعر قديم قدم الزمن قاله داوود في مزاميره:

«الحب قوي كالموت.. والغيرة قاسية كالقبر».

ارتعشت يدها في قبضة جايمي الدافئة، فاشتدت أصابعه عليها وسأل بهدوء:

ـ أترغبين في شراب بارد؟

ـ أجل.. أجل.. شكراً لك.

سألتها مالينا بمكر وهي تقف قربها فجأة:

ـ ألست على ما يرام؟ تبدين شاحبة قليلاً تحت ماكياجك الرائع

ليندي.. ألا تظن هذا دونڤان؟

عاد جايمي فوقف ينظر إلى مالينا هنيهة قبل أن يصبّ اهتمامه على ليندساي.. في مكان ما من قلبها البارد اشتعلت شرارة دافئة.. قد لا يحبها جايمي.. لكنه يهتم بها.. وهي في هذه اللحظة بحاجة إلى أي نوع من الدعم تجده.

كان صوت دونڤان مشبعاً بالتسلية عندما مدّ يده برفع وجه ليندساي إليه ونظرته قاسية:

ـ متعبة ليندساي؟

ردت ببرود: «أبداً».

تحركت مالينا الملتصقة به متململة.. فلما ترك ليندساي قال الصوت الطفولي الرفيع الحاد بوقاحة أظهرت كم أطاح نصرها برأسها:

ـ لا بد أنني أنا النور الذي يجعلك تبدين متعبة.. دونڤان لماذا تناديها ليندساي؟ إنه اسم مستعار.. وأنا واثقة أنها تفضل أن تنادى باسم ليندي، أليس كذلك ليندي؟

وكان سهلاً على ليندساي أن تهز كتفيها بلا اكتراث:

ـ ليس لدي اسم مفضل.

قال دونڤان برقة:

ـ إنه اسم يعجبني وهو يناسبها.. هل تقرئين الشعر مالينا؟

اتسعت عينا مالينا إلى أقصى مداهما:

ـ لا.. أهو اسم حقيقي إذن؟ طالما ظننته مصطنعاً! أما الشعر فلا أميل إليه ولا إلى الثقافة والفكر بل أفضل عليها الحركة والعمل.

حدّد المعنى الكامن في كلماتها وعداً مستتراً.. فنظرت بتحد إلى ليندساي.

شعرت بشفقة مفاجئة على مالينا المنتصرة ولو عرفت أنها قد تفهم، لحذرتها.. لكن نظرة واحدة إلى الوجه الجميل الأنيق أقنعها بالعكس، فستضحك مالينا منها.. وتتهمها بالغيرة والحسد.

أين هو جايمي؟ جالت نظرة ليندساي في الغرفة فوجدته واقفاً مع مضيفتهم.. إن أخلاقه الطيبة تمنعه من مقاطعتها لذا لن تتوقع ليندساي العون منه.

قالت مالينا التي عادت إلى الموضوع بإلحاحها الطبيعي المزعج:

ـ أتعلمين.. تبدين متعبة فعلاً أو تعسة. ربما عليك أن تنامي باكراً ففي المنطقة أنفلونزا منتشرة.. وقد تكونين على استعداد لالتقاطها.

فجأة أحست ليندساي بالقرف من كل شيء.. القرف من مالينا وتلميحاتها الشريرة، القرف من دونڤان وقسوته.. لكن فوق هذه كلها القرف من الجهد الذي تبذله للحفاظ على ماء الوجه.

قالت:

ـ قد تكونين على حق.. لذا هلا عذرتني..

التفتت لا إرادياً إلى الرجل الذي كان يراقبها بعينين صارمتين.. عندما كانت تتكلم استقام ونزع ذراعه من حول كتفي مالينا، وقال:

ـ أحضري وشاحك.. سألقاك عند الباب.

لو كانت حقوداً كمالينا، لاستمتعت بالغضب والذهول اللذين بدَوا على الوجه الجميل لدى استيعابها معاني كلمات دونڤان.

قال وكأنه لم يقض السهرة كلها في محاولة اجتذابها:

ـ الآن، أين هو ذلك.. آه هذا هو.. ما اسمه؟ روسل؟

سمّر الذهول مالينا: «لكن.. لكن.. دونڤان!»

وصمتت وكأنما تلقت تحذيراً من الوجه الصارم الوسيم الذي انحنى نحوها متسائلاً:

ـ إنه هو من أحضرك إلى هنا.. أليس كذلك؟

ـ أنا.. أجل.

ـ إذن من الطبيعي أن تعودي معه.

تلوى قلب ليندساي العطوف على مالينا التي أهرق ماء وجهها.. وفي السيارة قالت له بحدة:

ـ يا لك من نذل!

ـ لكنني نذل مهذب.. طالما علمتني أمي أن قمة سوء الأخلاق أن أوصل فتاة إلى بيتها غير التي خرجت برفقتها.

ـ لماذا؟ لماذا فعلت هذا؟ ظننتك...

صمتت متوردة الوجه.

كانت نظرته الجانبية كالسوط.. لكنه قال بلطف:

ـ أعرف ما ظننت، ولكنك كنت مخطئة كحالك دائماً.. بإمكانها في المرة القادمة أن تعيد التفكير قبل التخلي عن مرافقها بمثل هذا الحماس.. بِمَ أحس برأيك وهو يراقبها تعبث طوال السهرة معي؟ لم تكن مهتمة البتة بالفتى المسكين!

ـ ولكنك تصرفت بالطريقة ذاتها.

ولم تدرك عناء المقارنة إلا متأخرة.

ـ آه.. لكننا أنا وأنت نشن حربنا الصغيرة الخاصة.. أليس كذلك حبيبتي؟ وفي الحرب كل شيء مباح.

انزعجت من اللهجة الساخرة في صوته الرقيق.

ـ إذن تعمدت الإيقاع بها أمام جميع أصدقائها! هذا عمل قاس لا رحمة فيه.

ـ وإنها قطة صغيرة قاسية.. وحان الوقت ليظهر لها أحد ما هو الإحساس في أن يُسخر منها.

لم يكن هناك ما هو أدل من قوله هذا على عدم اهتمامه بمالينا ولو قليلاً، فلم يعجب بها أو يحترمها ولم يرغب فيها رغم الجهد الذي بذلته لإثارة رغبته..

ارتعشت ليندساي:

ـ ما زلت أعتقد أن هذا شيء قذر قمت به.. لقد جعلتها تبدو غبية كلياً.

ـ ولماذا تهتمين؟ فهي لم تهتم بالفتى الذي جاءت معه ولم تهتم

حتى بك.. وأنت رقيقة القلب والروح..

ردت مدافعة عن نفسها أمام سخريته:

- لا تستطيع إلا أن تكون ما هي عليه.

- لكنك مخطئة.. بإمكان أي كان أن يتغير إذا أراد.. لا تحتاج المسألة إلى أكثر من العمل.

نصيحة كاملة حقاً.. ربما يستخدم قوة الإرادة لتغيير تلك الصفات في شخصيته..

- أنا أرى أن إذلالها ليس بالطريقة الفضلى لمعالجتها.. لكنك خبير في هذه الأمور.. أليس كذلك؟

- ومتى أذللتك؟

كادت تشهق، لكن الفطنة حذرتها من أنها وجهت الحديث إلى طريق خطرة.. فقالت:

- انس الأمر.. إنه غير مهم.

الواضح أنه سيترك الأمر على ما هو، لأنه لم يرد. وبسبب الترميمات في الطريق لم يكن قادراً على أن يسرع فظلت السيارة تسير في سرعة محددة مع أن لبندساي حمدت الله لأنها تضع حزام الأمان فلم يسبق أن رأته يسرع هكذا.. تنهدت.. لا شك أنه غاضب مثلها.

لما اقتربا من الجسر الوحيد الذي لم يمس، أبطأ سيره وقال وألواح الجسر الخشبية ترتج:

- متى يتوقع أبواك عودتك؟

ردت ببطء:

- لا وقت محدد.. أنا فتاة ناضجة.

قال: «إذن ستتوقف قليلاً لتتباحث بضعة أمور.. ممكن؟»

ثم أوقف السيارة في مساحة معشوشبة، فقالت معترضة:

- ليس بيننا ما نتباحثه.

قال بهدوء زاد من التركيز على معاني كلماته المستترة:

- بلى.. ثمة مواضيع كثيرة.. فلنبدأ بالبيطري الوسيم.. أيؤلمك أن تعرفي أنه لا يحبك؟

تطايرت الأفكار في رأسها تلاحق بعضها بعضاً بذعر وارتباك، لا شك أن وجودهما أزعج ديك درّج فصاح بصوت عال وطار من مكان إلى آخر طلباً للأمان.

قالت من بين أنفاسها:

- لا.. لا يؤلمني هذا.

أحست بالتوتر الذي يسيطر عليه وعرفت أنه لن يتردد في أن يهزها حتى ينتزع الحقيقة منها.

- كنت تعرفين؟

- أجل.. أنا مولعة بجايمي.. فهو لطيف يراعي مشاعر..

قاطعها بنفاد صبر شرير:

- أوه وفري عليّ ذكر فضائله.. حسناً هذا ينهي موضوعه.. والآن ماذا عن خبرتي في الإذلال.. متى أذللتك؟

- قلت لك إن الأمر غير مهم.

- أنت قلت هذا، أما أنا فلم أقله.. أكان ذلك حين طلبت منك أن تكوني محظيتي؟

جلست صامتة ترفض الحراك أو الرد.

قال بهدوء شديد:

- لا أبالي أبداً كم سأجلس هنا أو ما الوسيلة التي قد أستخدمها لأنتزع الحقيقة من عقلك الغليظ.. إذن.. ما رأيك بالبوح بما في نفسك؟

- أنا لن.. ليس الأمر مهماً.

سمعت أنفاسه المتهدجة.. لكن عندما كان يهم بالالتفات إليها ظهرت أنوار سيارة أخرى من خلفهما، ومرت بهما مطلقة زموراً ساخراً مضحكاً.. فشغل المحرك وترك السيارة بلا حراك حتى خمد الغبار.

ـ إنك لمخطئة.

وتحركت السيارة.. ولكن عندما دخلا إلى المرآب، قال:

ـ لقد أخرنا فقط موعد النقاش ليندساي ولم نلغه، فلا تساورنك أية أفكار أخرى.

فركت عينيها بظاهر يديها، فقال نافذ الصبر:

ـ هيا اذهبي إلى النوم! تبدين كطفلة متعبة.

إذن لا يريد النقاش الآن.. وفي الصباح التالي عرفت السبب.

قالت لولا بحزم لزوجها:

ـ حسناً.. يجب أن نذهب.. حبيبي أنت تعرف أنني نظمت الأمور مع جولي، وأنت وافقت.

تنهد توماس ثم قال لدونڤان الجالس معهم إلى مائدة الفطور:

ـ حين تتزوج، لا تدع زوجتك تطلب منك شيئاً قبل أن تغفو مباشرة.. فأنت ستنسى، أما هي فلا.

ابتسم دونڤان له:

ـ سأتذكر هذه النصيحة.

قال توماس بصوت مستضعف:

ـ حسناً.. سأرافقك لنقضي اليوم في منزل جولي شرط أن أساعد كولي مارشال بجولته على القطيع.

ضحكت لولا، وهزت قبضتها في وجهه ولكنها وافقت ثم سألت:

ـ ماذا عنك دونڤان؟ ألم تقل إن لديك اجتماعاً؟

ـ بلى، مع جماعة من أعضاء البرلمان.

قالت لولا وهي تتناول كوب عصير الغريبفروت:

ـ هنيئاً لك.

ـ يجب أن أقوم بهذا.. يريدون جميعهم إلقاء نظرة على المشروع. لكنني سأعود في موعد العشاء.

وكادت ليندساي تتنفس الصعداء إذ لن تكون هنا بمفردها معه.

قال توماس: «فليكن يومك ناجحاً.. فالصباح رائع على أي حال.. لكن الطقس سيتغير بعد الظهر.. يتوقعون سقوط أمطار وهبوب الريح».

عبس قليلاً ثم نظر ساهماً إلى التوست الذي يحمله في يده:

ـ أوه.. أجل.. قبل أن أنسى.. عليك دونڤان أن تحذر رجالك أن الطقس في رانجيتاتاو التي تبدو كالجنة لهم، قاس شرير. بالأمس رأيت رجلين يصطادان عن الصخور في أسفل البوابة الشمالية.. سيكونان بأمان حتى يتغير الطقس.. فعندئذ على المرء أن يعرف ما هو موقعه.

هز دونڤان رأسه:

ـ سيبلغهم ساري التحذير.. أما زلت تمنع صيد الأرانب؟

ـ يشعر معظم الرجال بالمسؤولية، أعرف هذا.. لكن قطيعي غالي الثمن.. ولا أحتاج إلا إلى غبي واحد لأخسر ألف دولار.

ـ هذا صحيح.

ليس المال التعويض المناسب لحيوان اعتنى المرء بتأصيله.

ارتشفت ليندساي قهوتها ببطء فهي تعرف أن العمال يعملون باذلين الجهد ساعات طويلة مما لا يترك لهم وقتاً للراحة التي يحتاجون إليها، وليس هناك ما يسليهم حين يعطلون.. لذا يذهب بعضهم لاصطياد السمك، ويقصد بعضهم فنادق قريبة للسهر.. ويتلمس بعضهم موقع قدم في اجتماعيات المنطقة.

سألت وهي غير واثقة من نفسها:

ـ لماذا لا تسمح لمدير المشروع والمراقبين بالاصطياد في منطقة «واپپوري»؟ أعرف أن هناك أرانب.. لقد ذهبت أنا وجايمي إلى البحيرة فرأيت الضفاف الرملية هناك مليئة بثقوب أوجارها.

نظر توماس إلى ابنته بإعجاب:

ـ هذه فكرة.. أتعرف المنطقة دونڤان؟ إنها على بعد ستة أميال عن

الطريق.. لقد أنشئت البحيرة منذ عشرين عاماً ثم تركت، ولم تفعل الإدارة الحكومية شيئاً لها منذ ذاك الحين وبما أن جون غورمن المسؤول عنها رجل عاقل فسيكون مسروراً بإنقاص عدد الأرانب الهائل هناك.

ـ سأرتب الأمر.. إنما من أجل الفضول.. لماذا لا يقلقك أنت تزايد عدد الأرانب؟

ـ أنا وليندي نحافظ على عددها.

والتفت إلى لولا:

ـ هل أصبحت جاهزة؟

ـ لم يتبق أمامي غير تنظيف الصحون.

همّت ليندساي واقفة: «سأفعل هذا بنفسي».

بعد نصف ساعة كان المنزل لها وحدها، هادئاً ساكناً إلا من صوت آلات البناء التي تعكر الجو.. جددت الزهور في المنزل، لكنها وقفت لحظات بباب دونڤان مترددة، ثم وبخت نفسها: لا تكوني حمقاء! ودخلتها.

كانت مرتبة لا شائبة فيها، الفراش مرتب، سطح منضدة الكتابة نظيف وفارغ من أية ورقة لا لزوم لها.. وحدها الفرشاة على طاولة الزينة تدل على أنها ليست خالية من السكان.. ثم تقدمت نحو كتاب لتقرأ عنوان.. «الاوديسة» تلك القصة عن رحلة المهندس اوديسوس إلى بلاده وإلى زوجته المخلصة «بينالوب».

بدت قصة غريبة لمثل هذا الرجل الحاذق، قصة حب سامٍ، بربرية، فيها مكر وضيع ومآثر بطولية..

فجأة أحست أنها تتطفل عليه.. فوضعت الزهور في مكانها وتركت الغرفة.

يجب أن يخبو الحب الذي لم تعترف به، يجب أن يموت بكل تأكيد، وفي هذه الأيام لا يموت أحد من الحب... من الأفضل لها أن

تلتقط شتات نفسها وتحاول مجدداً ولكنها هذه المرة لن تترك للجاذبية مجالاً لتعمي بصيرتها.. قالت وهي تسحب لفافة «الغيليه» المثلجة من البراد: لقد جعلت من نفسك غبية مرتين ولكنك ستكونين في الثالثة محظوظة، يا فتاة!

بعد الغداء أخذت تفاحة وبرتقالة غسلتهما ثم اتجهت إلى جزء من الحديقة لا يظهر للعيان، واستلقت على بساط تتوسد ذراعيها.. لو بكت الآن قليلاً فلن يعرف أحد أو يسمعها.

أيقظتها برودة مفاجئة في الطقس. لقد وصلت الغيوم التي تكهن بمجيئها توماس.

تثاءبت.. ثم التقطت البساط وسارت ببطء على المرج.. إن السماء تنذر بالخطر الذي يزحف فوق رانجيناتاو، وكأنه يتسلل خلسة.. إذن، مطر وريح.. حقاً! ستكون عاصفة بكل ما للكلمة من معنى.

في الدقائق التالية حثت الخطى نحو المنزل لتقفل النوافذ ولتوصد الأبواب ولتدخل الكراسي والأثاث الموضوع في الخارج. عملت على ذلك وفي هذا الوقت كانت الغيوم تتلبد في السماء حتى أصبحت شاحبة.

ما إن هطل المطر حتى قفلت راجعة من خمّ الدجاج، ولكن الريح أمسكت بها ولم ترحمها.. وما إن وصلت إلى الشرفة المسقوفة حتى كانت غارقة بالمطر تشهق، فالمطر كان بارداً.

عندما كانت تجفف شعرها فكرت في أعضاء البرلمان، ترى هل أنهوا جولتهم قبل سقوط المطر؟

وكأن أفكارها استدعت من تفكر فيهم.. فقد وصلت سيارة دونڤان المسرعة فاجتازت البوابات ثم توجهت إلى المرآب.. وقبل أن تدرك أنها تتطلع فاغرة الفم، بلوزتها وشورتها غارقان بالمطر عليها، كان قد دخل من الباب فطافت عيناه على ملابسها المبللة ثم توقفتا على

وجهها الشاحب.

قال بقسوة:

ـ أسرعي وغيري ملابسك قبل أن تمرضي فجسدك مقشعر كله.

ودخل إلى المنزل.

هرعت إلى غرفتها لتبدل ملابسها فارتدت سروالاً من الجينز وكنزة سميكة دافئة فوق بلوزة صوفية وبعد ذلك مشطت شعرها ووضعت على شفتيها أحمر شفاه.

عادت إلى غرفة الجلوس مستقيمة القامة فوجدته راكعاً أمام المدفأة. كانت كتفاه العريضتان تسدان منظر النار المتأججة. ما إن أحس بها حتى أدار رأسه ثم وقف، وعلى وجهه تعابير غير مقروءة ثم راحت عيناه تقوّمان وجهها.

قال بصوت هادىء وكلمات مهددة:

ـ والآن.. لدينا حديث نكمله.

سألته يائسة:

ـ وماذا عن أعضاء البرلمان؟..

ـ رحلوا.

ـ لكنك قلت..

صمتت، لقد تذكرت ما قاله.. يا له من قذر!

ـ قلت إنني عائد وقت العشاء.. هذا صحيح. لو تركتك تعرفين أن لديهم موعد غداء في مكان آخر من الساحل لذهبت مع أبويك.

أشار إلى كرسي:

ـ اجلسي ليندساي.. ليس هناك من يقاطعنا، ولا سيارات تطلق الزمور.. لن يمنعنا شيء من إنهاء نقاشنا الذي بدأناه ليلة أمس.. أريد أن أعرف ماذا في نفسك.

قالت بمرارة:

ـ تريد أن تشرحني كضفدعة في المختبر.

ابتسم: «هذا ما أريده بالضبط جميلتي.. فأنا أجد طريقة عمل عقلك مثيرة ولقد وعدت نفسي بعدم مغادرة المكان هذه المرة حتى أكتشف الكومبيوتر في رأسك، وكيف يخرج بردات الفعل الغريبة».

هو لا يمزح.. مع أن الكلمات قيلت بصيغة مرحة.. نظرت ليندساي إليه حائرة فأردف بلطف:

ـ إمّا تردين عليّ بطواعية وإمّا أنتزع منك الحقيقة انتزاعاً.. فأي طريقة تفضلين؟

ـ لن تفعل..

ـ جربيني.

ضربت ريح شرسة النوافذ وكانت ليندساي تحدق إلى الرجل الواقف أمامها فعرفت تصميمه الذي لن يتزحزح، واستسلمت غاضبة بمرارة من نفسها لخضوعها له وقالت وهي تسير إلى الكرسي الذي أشار إليه:

ـ لن أسامحك على هذا أبداً.

قبل أن تجلس لفت انتباهها شيء، فارتدّ رأسها إلى النافذة، وراحت تركز النظر على ما في الظلام خارجاً. كان المطر قد توقف، لكن الخليج كان خليطاً من أمواج رمادية وقمم بيضاء مهددة، تدفعها هبات ريح عنيفة.

قالت بحدة وهي تشير بيدها: «انظر».

ـ ماذا..؟

وصمت فقد شاهد ما شاهدته، وقال:

ـ أحضري منظاراً.

ذهبت إلى غرفة الجلوس الصباحية وانتزعت المنظار عن رف الكتب.. ثم راحت تعدّل العدسات بيدين مرتعشتين وهرعت بعد ذلك إليه.. أظهر المنظار بوضوح قارباً صغيراً هشاً من الألمنيوم ورجلاً يناضل بيأس لإنقاذ حياته.

انتزع دونقان المنظار منها.. فركضت نحو الشرفة، فلحق بها..
قالت بسرعة وهي ترتدي معطفاً واقياً من المطر:
- من الأفضل أن تتصل بالمخيم.. قل لهم أن..
أمسك ذراعها بقبضة فولاذية:
- رويدك لحظة.. إلى أين تظنين أنك ذاهبة؟
التقت عيناه بنفاد صبر:
- لأنقذه.. سأخرج باللانش إليه.
- لا تكوني حمقاء!
- يجب أن أفعل.. لن يقوى هذا المركب على الصمود كثيراً.. على أحد أن ينقذه وأنا أعرف الخليج كراحة يدي.. إنه الآن داخل مجموعة الصخور الأولى.. فإن لم ينقذه أحد الآن انتهى محطماً فوق سلسلة متوارية تحت سطح الماء.
أخذ يلعن بصوت خفيض ولكنه تركها ليرتدي معطف توماس الواقي من المطر وقال بصوت أجش:
- لن تستطيعي السيطرة على اللانش بمفردك.
أحست بتصاعد خفقات قلبها، فقالت بسرعة وهي تشد حزام معطفها البلاستيكي:
- لن نستطيع استخدام اللانش.. إنه ثقيل لذا لن نستطيع إدخاله بين تلك الصخور.. يجب أن نأخذ الزورق البخاري الصغير. إنه أصغر حجماً وأقل عرضة للخطر.
شحب لون دونقان عندما تكلمت ثم أغمض عينيه لحظة، قبل أن يهز رأسه موافقاً وانحنى يعانقها. ثم قال متوتراً:
- تعالي.
لو كانت بمفردها لاحتاجت إلى أضعاف هذا الوقت الذي وصلا فيه، فبعدما اتصلت بالمخيم طالبة المساعدة هرعت إلى المطر والريح، فوجدته ينتظرها في الزورق البخاري والمحرك دائر.. ما إن

دخلته حتى أطلق المحرك الذي انطلق بهما في الخليج بسرعة كبيرة لا تجرؤ على الانطلاق بها.
حين اقتربا من السلسلة الصخرية الأولى، لامست ذراعه واندست أمامه تأخذ المقود عابسة وعندئذ راحت تقاوم المقود لتناور بالقارب بين الأمواج العاتية.
بدت أمامهما كتلة بيضاء من المياه لن تتكسر إلا على الصخور الشريرة التي تكاد تبدو فوق السطح وكان المطر ورغوة الماء يصدمان وجهها حتى اضطرت إلى رفرفة عينيها بشدة لتبقيهما صافيتين. أما يداها النحيلتان فكانتا ثابتتين على الدفة موجهة القارب الصغير الضعيف أقرب فأقرب إلى الجرف الصخري.
لقد اختار الصياد مركزاً جيداً فهو يقع في بركة وسط متاهة من الصخور التي كانت تحميه جزئياً من الأمواج العاتية، وفي الطقس الجميل لا يمكن أن يجد المرء بقعة مثالية كهذه. أما الآن فظهر أن هذه البقعة فخ.. هناك فقط مدخل واحد وممر ضيق بين الصخور ولكنه الآن غير آمن بسبب تكسر الأمواج هناك وارتفاعها لتمنع قارباً كهذا من شق طريقه إلى الخارج.. وكان القارب منقلباً يهتز كطير مبلل، أما راكبه فكان يرتدي سترة حمراء وسروالاً طويلاً ملتصقاً تتقاذفه الأمواج نحو الصخور الخطرة.
دعت ربها بصدق ثم وجهت مقدمة زورقها نحو الصخور لتحمي المحرك من الاصطدام بالصخور ولم ينظر دونقان إلى ما تفعل لأنه كان يلتقط الحبال.
أحسنت اختيار موقع الوقوف جيداً مستخدمة جسم الزورق لحماية الرجل السابح في الماء من قوة الأمواج. أبقت الزورق في مكانه بينما كان الحبل يطير فوق المياه الرمادية والبيضاء.
الحمد لله لأن الرجل ما زال يشعر بيديه! راحت ليندساي تتضرع إلى الله ليساعده وأخذت تشجعه بكلماتها.. دس الرجل الأنشوطة

بصعوبة حول كتفيه.

بقي دونڤان ممسكاً بالحبل حتى أحست ليندساي بشدته على جسم الزورق، وعرفت أنه بدأ يسحب الرجل.

كان رجلاً ضخماً وما زاده ضخامة السترة السميكة التي يرتديها والتي تزيد وزنه وتعيقه عن السباحة.. ولكن دونڤان سارع بسحبه إلى الزورق، ورفعه عن الحانب بقوة أرهبتها. ثم صاح: «والآن انطلقي!»

كان طريق العودة أصعب بين الصخور.. وكان على ليندساي أن تقاوم اندفاعاً يحثها على فتح قوة المحرك لتبتعد بسرعة عن الخطر، ولكنها كانت تركز على القيادة حتى آذت شفتها التي تعضها بأسنانها.

أخيراً تحرر الزورق البخاري وخرج بهم نحو الأمواج الكبيرة إنما الأقل خطراً.

قال دونڤان بدون أن ينظر إلى الرجل الذي أنقذه:

ـ لا بأس الآن.

ودفعها بكتفه ليأخذ الدفة منها.. فتهاوت قليلاً ولكنها تمسكت بحافة الزورق وتمكنت من موازنة جسمها في وقت تعالى فيه صوت المحرك في هدير عميق، وقفز الزورق البخاري فوق الأمواج بسلسلة من الصدمات جعلتها تجفل وتصيح بالصياد المرمي في أرض الزورق:

ـ لن يطول بنا الوقت.

رفع رأسه مبتسماً ابتسامة واهنة، ولكنه لم يستطع الحفاظ عليها بسبب سلسلة من الرجفات التي هزته، وكانت دلائل حسنة على أن ما تعرض له لم يؤثر فيه كثيراً، ولكنها خشيت أن يكون قلبه قد تضرر.

بدا دونڤان تمثالاً منحوتاً من حجر أصم أسود.. فالجزء الوحيد المتحرك منه كانت يداه وذراعاه اللتان أوصلتا الزورق إلى الجون التابع للمنزل حيث كانت مياهه هادئة نسبياً وهناك كان مدير المخيم ينتظر مع جماعة من الرجال وفريق الإسعاف الأولي.

قال لدونڤان:

ـ اتصلت بالمستشفى.. يجب أن ندفئه ثم نحمله إلى حيث سيعاينه فريق الإسعاف.

سألت ليندساي مرتجفة:

ـ ألا تريدون معاينته في المنزل؟

رد دونڤان عن المدير:

ـ لا.. ففي المخيم غرفة للإسعاف الأولي مجهزة جيداً.

قال المدير مبتسماً لها:

ـ شكراً آنسة جورغنز.

هزت رأسها وارتدت تراقب الرجال الذين فتحوا مظلتين فوق الحمالة.. تكلم دونڤان بسرعة وبلهجة حازمة. فكرت: يجب أن أذهب إلى المنزل وأغير ملابسي المبللة. ثم صدمتها رجفة أخرى هزتها بقوة اضطرت معها أن تصرّ أسنانها لتمنعها من الاصطكاك.. أحست بيديها دافئتين متورمتين فدستهما في جيبي «الأنوراك».

رنت بطرف عينها فرأت المدير يحييها قبل أن ينطلق وراء رجاله.. وفيما كانت تهم بدخول المنزل تذكرت شيئاً، فارتدت. عليها الاهتمام بالزورق، وأحست بألم في قدميها وهي ترتد نحو الشاطىء.

ـ ماذا.. أوه.. فهمت!

وساعدها دونڤان على رفع الزورق إلى الشاطىء ثم جراه إلى أبعد من حدود المد، وتركاه هناك. لكن دونڤان فك المحرك وحمله إلى السقيفة.. وذهبت معه ولكن عقلها كان معطلاً.

* * *

١٢ ـ الحب قوة أو ضعف؟

قال دونڤان آمراً:

ـ تعالي.. تبدين وكأنك من عانت ظروف الغرق.

أمسك يدها ولم يهتم بأن يلاحظ هذا أحد رجاله. ولكن يده لم تكن تلك اليد الحنونة.. فلسبب ما هو غاضب، وهي تستطيع الإحساس بتوتره.. عندما تعثرت تمتم شيئاً ثم شدها لتقف بقوة لا لزوم لها.

في المنزل قال بفظاظة: «جففي نفسك».

خلعت المعطف الواقي من المطر ترفعه من فوق رأسها فبداها كانتا مخدرتين بحيث لم تستطع فك الأزرار والسحابات، وكان دونڤان يخلع معطف توماس بدقته المعتادة. وفيما كانت واقفة مرتعشة طلب منها معطفها بهزة عنيفة من رأسه:

ـ سأعلقهما في الكاراج.

إذن هو غاضب.. وهذا ما يجعلهما اثنين.. كانت أرض الردهة غارقة بالمياه، وهذا ترحيب رائع لاستقبال لولا.. لعنت حظها ثم سارعت إلى ممسحة وبدأت بمسح الأرض.

ـ ماذا تظنين أنك فاعلة؟

جاء السؤال بلهجة شديدة الحرارة، فانتفضت وهبّت واقفة.. كان واقفاً بالباب ينظر إليها بغضب مشتعل جعلها ترتد خطوة إلى الوراء عن غير قصد منها.

ـ أنظف.

مررت الممسحة فوق الأرض لتشير إلى ما تفعل.

قال آمراً: «ادخلي وضعي عليك ثياباً جافة.. أليس لديك عقل؟»

ارتفع رأسها بتحد:

ـ إن لم أكن ذكية كالعظيم دونڤان راسمسون فهذا لا يعني أن عليّ أن أكون..

كان تصرفها طفولياً لكن ردة فعله فاجأتها.

صاح: «كفى».

تقدم بسرعة، ثم رفعها على كتفه وكأنها كيس بطاطا ففقدت للحظة النطق، للحظة فقط ثم صاحت وهي تحاول رفع نفسها إلى الأعلى:

ـ أنزلني!.. أيها المتوحش.. أنزلني فوراً وإلا سوف.. سوف..!

تمتم: «اصمتي! لقد سئمت منك.. قبل أي شيء أنت ساحرة لعينة وستفعلين ما أريد أنا أن تفعليه.. ولن يكون أمامك طريقة لتهربي من هذا!»

ماذا يقصد بكلمة «هذا» لم تجرؤ على التفكير فيه.

ـ آه! حاذر أن تجرؤ!

رد صائحاً:

ـ سأجرؤ على فعل ما أريد!

وارتدّ إلى غرفته.

ـ لا.. دونڤان.. أرجوك!

رد من بين أسنانه المشدودة: «بلى».

ورماها على السرير.

شهقت خائفة: «دعني أذهب!»

تركها فوقعت مجدداً على الفراش. دفعها الرعب إلى الهرب من

السرير ولكنه أمسك شعرها وأعادها.. بدت تعابير وجهه متجهمة فراح الخوف يتخبط في نفسها وكأنه كائن حي.

قالت باكية: «أحتقرك!»

لكنه ابتسم ابتسامة مضيئة متوحشة وعانقها بقوة حتى هدأت وتوقفت عن البكاء..

مهما فكرت.. مهما أعطاها عقلها حججاً لتكرهه.. فلن تفهم شيئاً منها.. منذ البداية، كان بينهما تجاذب تطور حتى أصبح أغلالاً أقوى من تلك المصنوعة من حديداً وفولاد.

تمتم: «آه.. ليندساي. لا يمكننا البقاء هكذا.. أظن أن من الأفضل أن نتزوج».

جمدت أنفاسها في حلقها: «ماذا.. ماذا قلت؟»

نظر إلى وجهها وبريق الحب ما يزال مشتعلاً في عينيه، لكنه مخبأ وراء تسلية ساخرة تعرفها خير معرفة. رد ببرود: «لقد سمعت».

ومد يده ليبعد الخصلات الرطبة عن وجهها.

سألت: «هل أصبت برأسك؟»

لوت ابتسامة شفتيه:

ـ لا حبيبتي.. بل أنا أملك كافة قواي العقلية.

ـ لكنك لا تؤمن بالزواج!

ـ ولا أؤمن بالحب كذلك.. ولكن إن لم أكن قد وقعت في حبك، فقد اكتشفت مجموعة جديدة من المشاعر تتحدى أي وصف.. وأظن أن من الأفضل أن تتزوجيني..

نظرت إليه بذهول تام فأردف:

ـ معك أفقد الثقة بنفسي لذا أريد أن أضع حداً لصراعي.

ـ أظنك.. جننت!

ومضت السخرية في أعماق عينيه السوداوين:

ـ أنا مجنون بك.. ماذا فعلت بي في تلك السهرة؟ لقد سلبت

قلبي. هل رميت رقية سحرية عليّ؟ أتعرفين أنني أمضيت ساعات وأنا أحاول الاستطلاع على مكانك من مومًا؟ ولم تقل لي.. قالت فقط إنك بحاجة إلى فرصة للراحة.. يا إلهي، حين رأيتك في ذلك المحل.. كدت..

تشابكت أصابعها في شعر رأسه.

سألت هامسة: «كدت.. ماذا؟»

كانت تستكشف شكل رأسه المتكبر الذي شدته إلى الوراء.

ـ ماذا.. قلت؟

بان الضحك تحت أهدابه، الضحك والسخرية والحب..

ـ ألم تلاحظي؟ يا لك من بريئة يا سيدتي الجميلة ليندساي! عرفتك بالتأكيد.. عرفتك، عرفت خطوط قدّك الرشيق، عرفت الصوت الهادىء وطريقة مشيك.. أوه.. لقد مرت بي ليالٍ طوال كنت أفكر فيها عن السبيل لمعرفة مكانك فمنذ رأيتك نسيت الدنيا كلها ولم أعد أر سواكِ.

ـ لكنك قلت لي.. قلت إنه لزمك وقت لتتعرف إليّ..

ـ آه.. لأنني كنت أحاول اصطيادك مجدداً.. وأول ما يتعلمه الصياد هو عدم إخافة طريدته.. لو عرفت أنني عرفتك فوراً لأدركت أنني عرفتك بأكثر من النظر بعيني.. مع أنني يومذاك لم أر سوى ظهرك ولكنني خشيت إن أظهرت لك معرفتي لهويتك أن تخافي وتهربي ثانية.

لم يعد عناقه مجرد دعابة، كان وكأنه يسمها سمة الملكية، ليظهر لها أنها ضعيفة عاجزة أمام قوته. فشهقت:

ـ كف عن هذا!

ـ الوقت متأخر على هذا يا حبي.. وكان متأخراً بعد عشر دقائق من لقائنا الأول.. في الواقع.. لو كان لدي الجرأة لاختطفتك من المطعم. أتذكرين أنني حدجتك بنظراتي من رأسك إلى أخمص قدميك ولكنك كنت تتعشين مع ذلك الأحمق، أريك هوبر.

رفضت أن ترد.. وحدقت إليه بغضب مكبوت فرأته يضحك وعيناه قاتمتان خطيرتان.

قال متمتماً:

ـ لقد أعجبني منك ما رأيته تلك الليلة.. لكنني كنت غاضباً لأن كريس كانت مصرة على أريك.. وظننتك عشيقته.. لهذا حين رأيتك في العرس قررت أن أبعدك عن منالك.

ارتفعت يداه تمسكان بوجهها وأحست بارتعاشة أصابعه على بشرتها.

أردف: «ولكن بدل أن أتعرف إلى امرأة قاسية عابثة وهذا ما توقعته تعرفت إلى امرأة جميلة بعيدة كل البعد عن الحذاقة، لا لم أتعرف إلى امرأة بل إلى حورية من حوريات البحر. ثم لمّا أوصلتك إلى منزلك رغبت في التعرّف إليك أكثر..»

ـ لكنك كنت متوحشاً.. اتهمتني بأنني راغبة باصطيادك لأعيش معك!

ضحك برقة:

ـ أجل.. أعرف هذا.. إنه تصرف وقائي، صدقيني.. وكان على ذلك أن ينذرني بشيء.. فأن تفرضي نفسك عليّ فكرة لم تكن سيئة الوقع في نفسي.

لامست خطوط كفيه، ولكنها شعرت بكآبة اخترقت أعماق قلبها.

رفع رأسه إليها حذراً.. كما الصياد الذي ربط نفسه به.

ـ ما الأمر.. قلبي؟

في البداية هزت رأسها، فلم تكن حتى تلك اللحظة تدرك مدى حبها له.. فالتفكير أنه يعانق امرأة أخرى جعلها تغار وتشحب.

لا تدري كيف يفهمها، فقد بدت الشفقة على تعابير وجهه وأمسك رأسها ليضعه على صدره في وضع عمره عمر الزمان.

قال بهدوء: «أعدك بإخلاصي الكامل ولكن هذا لا يكفي كالثقة.

أحبك.. ولا أستطيع أن أتصور العيش مع امرأة أخرى.. فمنذ تلك الليلة كنت لي جميع النساء.. المرأة المثالية. في البداية ظننت أن جاذبيتك مجرد رغبة.. لكن عندما لم أستطع أن أجدك، أدركت أن الأمر أكثر من هذا بكثير.. اشتقت إليك وكأن نصف كياني انتزع مني، وتركني هذا مجروحاً جرحاً مؤلماً يرفض أن يُشفى».

همست بصوت أجش: «أوه.. أعرف هذا.. ورفضت بدوري الاعتراف به.. كنت أفكر فيك كثيراً ولكنني عزوت الأمر إلى أن المرأة تذكر من يرفضها دائماً، وما إلى ذلك من حجج. وتمسكت بالفكرة كطوق نجاة لأنني لم أجرؤ على مواجهة الحقيقة، ولكن ما إن سمعت صوتك اللعين حتى عرفت شدة غبائي. في تلك السهرة انتزعت مني قلبي ودخلت في رأسي، وجعلت نفسك جزءاً لا يتجزأ مني».

نظرت إليه بعينين واسعتين ملؤهما الانهام ثم دفنت رأسها مرة أخرى في صدره، والتفت ذراعاها بقوة حوله وراحت تبكي وكأن قلبها يكاد يتحطم.

همس: «حبيبتي.. آه! حبيبتي.. ألا ترين أن الأمر عينه مرّ بي كذلك؟ لماذا برأيك فرضت نفسي على منزل أبيك ولاحقتك بلا خجل أو ندم فيما كنت أعرف أنك لا تريدينني؟.. يعرف الله أنني كنت دائماً فخوراً باستقامتي، ولقد كدت تجعلينني أنسى كل مبادئي.. وإذا كانت خبرتي في الحياة تقلقك فأنا آسف على ما مر بحياتي من نساء.. لكن ألن تصدقي منذ الآن فصاعداً أنه لن تدخل حياتي امرأة سواك؟»

تنهدت بإرهاق إنما بصفاء ذهني لم تشهده منذ أشهر.

ـ أصدّق بل أنا لا أشعر بالغيرة منهن.. لكن اعلم أنك إن نظرت إلى أية امرأة أخرى فسأقتلها.. ثم أقتلك.. ثم.. سأقتل نفسي.

ضحك لتجهمها.. وقال واعداً:

ـ سأتذكر.. لكن ألا ترين أن علينا الخروج من هنا؟ لا أعرف متى سيعود توماس ولولا، لكنني لن أستمتع بالشرح لجون عن سبب

وجودنا في غرفتي.

ابتسمت.. ولكنها كانت لا تزال غير واثقة منه. لقد قال إنه يحبها وهذا يعني أنه يريدها، يحتاجها، ولكن ما تشعر به نحوه أبعد بكثير عن تفاسير كلمات الحاجة والحب، والأنانية.

أردف: أعرف أننا لن نستطيع متابعة الكلام الآن.. غيري ملابسك المبللة وسنكمل الحديث لاحقاً.

بعدما استحما، وارتديا ثياباً جافة عاد إليها الشعور بأنه غريب.

سألت بصوت جاف: «أتريد فنجان قهوة؟»

ـ إنها لفكرة صائبة.

ابتسم ساخراً وقد رأى ارتدادها السريع. حملت الصينية إلى غرفة الجلوس حيث وجدته واقفاً قرب النافذة. ارتعشت يداها وهي تصب القهوة، ولكنه ظلّ يحدق إلى الخارج.

أوه.. كم تحبه!

تحرك قلبها بين جنبيها.. ووقفت تقدّم له القهوة بعد ذلك تحدثا قليلاً ثم اتصل دونڤان بالمستشفى وتأكد من سلامة الرجل الذي أنقذاه.

حين عاد إلى الغرفة، كانت ليندساي قد أعادت إشعال النار، وجلست على عقبيها قربها تنظر إلى ألسنة اللهب.. رفعت عينيها تراقبه بقلق، والحواجز قد عادت إلى مكانها بحزم.

ابتسم فسألته متجهمة:

ـ لماذا طلبت مني أن أكون محظيتك؟

أصدر صوتاً مكتوماً في أعماق حلقه لكنه لم يلمسها. وآه كم كانت بحاجة إلى طمأنينة لمسته!

قال: «أردت أن أجرحك لأنك صدمتني برفضك».

بدا في عينيه بعض السخرية التي تكرهها ليندساي.. فأشارت متوترة وأشاحت وجهها بعيداً لئلا يشاهد الألم الذي أنزلته كلماته على قلبها.

قال مصرّاً: «لا.. اسمعي.. لم يكن الأمر هكذا. عرفت أنك مميزة.. لكنني كنت أخاف أن أؤمن بالحب خاصة من النظرة الأولى.. فكرت أنني قد وقعت مرة أخرى.. وأصبحت عاجزاً كلياً.. فليسامحني الله.. لم أستطع تقدير قيمة ما وجدت.. لكنني عرفت أنني لن أستطيع ترك ما وجدت يتسلل من بين أصابعي.. فاقترحت أن نبقى على اتصال..»

صمت ثم تقدم إلى حيث تجلس وكانت كتفاها النحيلتان مقوستين إلى الأمام، ورأسها مطأطأ.

ـ لا تظهري بمظهر المهزوم ليندساي وإلا اضطررت إلى ضمّك بين ذراعي لأواسيك.

طغى اللون الأحمر على وجهها.. ورفعت رأسها تنظر إليه بشوق.. فارتدّ على عقبيه وعادا إلى النافذة.

ـ دونڤان.

نصحها مازحاً:

ـ لا ترفعي رأسك.. فعندما تنظرين إليّ أجد من الصعوبة أن أفكر في أن أكون منطقياً في أفكاري.. ومن الأفضل أن نكون منطقيين..

وقف لحظة وكأنه يبحث عن كلمات أما ليندساي فراحت تراقبه ويداها في حضنها مشدودتان.. إن ما يريد قوله دونڤان مهم.

قال بقلق: «أنت لا تساعدينني كثيراً.. وهنا تكمن نصف المشكلة. كنت تكرهين نفسك بسبب تجاوبك معي، وأنا كالأحمق ظننت أن ما بيننا.. مشاعر عابرة. تلك الليلة الأولى، كنت مجروحة الكرامة متألمة من نبذ أربك لذلك رضيت أن تكوني رفيقتي في تلك السهرة».

هزت رأسها:

ـ أجل.. كان يخطط للزواج بأختك ويجعلني محظيته.. خلتني أحبه.. وكنت مضطرة إلى الهرب لأنني ظننتني غير قادرة على

مقاومته.. في عرس مومّا رأيته برفقتها فاضطررت أن أظهر له وللجميع أنني لا أهتم وأنني قادرة على اصطياد سمكة أكبر.. وكنت سأحبك لأنك ساعدتني على إنقاذ كرامتي.

ـ أعرف.. لقد سمعت حديثكما.

ـ لا غرابة أن تعتقد أنني سهلة المنال.

ـ لا.. بل وجدتك أنيقة وأردتك كما لم أرغب بامرأة قطّ.

ـ حسبت أن بي خطباً ما، فكيف أحب رجلاً وأعجب بآخر.

صمتت قليلاً، ثم أردفت:

ـ كما قال الرجل.. كنت طفلة مشوشة مجنونة.. ثم جئت إلى هنا وبدوت ألطف من ذي قبل.. ولكنني أقنعت نفسي أنني نسيتك، ثم بعد فترة عرفت أنني أقع في حبك مرة أخرى.

مال إلى خارج النافذة:

ـ حتى بلغتكم أخبار المشروع.. فكرهتني مجدداً.

ـ قليلاً. ثم طلبت مني أن أعيش معك.. وكرهتك أكثر بسبب عرضك ذاك.

بدا متوتراً وتوتر الصوت الواثق العميق متخيراً كلماته.

ـ السبب نظرتك إلى ما نشعر به على أنه مشاعر مؤقتة واحتقارك نفسك بسبب تجاوبك معي.. لكنني آمنت أن ما بيننا أمر نادر وثمين بحيث يتوجب علينا رعايته.. مع ذلك لم أدرك أنني أحبك.. أتعرفين بما يشعر به المرء حين تُرمى هدية في وجهه، ليندساي؟

ـ آمنت أنك أنت من فعل هذا بي.

هبت الريح فضربت زجاج النافذة. ارتد ينظر إليها وهي تراقب النار.

ـ كما سبق أن قلت حبيبتي.. صعّب السحر الذي بيننا أن نرى ما وراءه من أمور أهم.. إلى واقع أن لدينا أشياء كثيرة مشتركة وإلى أننا نتشارك الإحساس نفسه بالمرح.. وأننا قادران على الكلام ساعات

بدون أن نضجر بعضنا بعضاً.. وكان عليّ أن أدرك الأمر قبلك لأنني أكثر منك خبرة.. لهذا كنت قاسياً معك.

ارتد ليتقدم إليها فجذبها إلى ذراعيه الدافئتين:

ـ لقد وقعنا في الحب في آن واحد.. وكان علينا أن نعرف أن الحب وحده قد يعطينا القوة على إيذاء بعضنا بعضاً بقسوة. لقد عدت إلى وطني لأنساك.. حاولت.. والله يعرف كم حاولت! وكم أحسست بالوحدة.

ـ آه.. أعرف هذا. كنت وحيدة دائماً وأملت كثيراً مع أنه لم يكن أمامي أي أمل.

كان النبض في عنقه يضرب بسرعة، أدارت رأسها لتلثم باقة قميصه أما يدها فامتدت لتحيط بمؤخرة عنقه.

قال بصوت أجش: «هل ستتزوجينني؟»

ـ تعرف الرد.

ضحك وسمعت صدى الصوت في صدره:

ـ كل ما أعرفه أنني لن أترك هذا المكان بدونك.. حتى ولو اضطررت إلى خطفك وإجبارك على الزواج بي!

ـ متى قررت هذا؟

ـ قبل أن أعود.. في المرة الأخيرة.

نظرت إليه مذهولة: «لكنك تصرفت بطريقة قذرة».

ـ أجل.. لأن أول ما رأيته كان عناقك لذاك البيطري اللعين.. وكاد ينفجر عرق في رأسي وأنا أحاول السيطرة على أعصابي.. وقد ظنّ توماس المسكين أن الدم سيراق على أرضه».

ـ أبي؟

ـ أجل.. فقد رأى وجهي.. وتعرفين أباك! قال لي: مهلك يا فتى! وكان أملي الوحيد أن تكوني قد تصرفت معه كما تصرفت مع أريك.. وهذا ما منعني من صرع جايمي اللعين!

ـ مسكين جايمي . . لا شك أنه تساءل ما الذي يجري . . ولكنني أحسست بالذنب لاستغلاله . . كنت أريد أن تكرهني لتتركني وشأني . . لأن . .

وتلاشى صوتها بسبب تسارع الاحمرار إلى وجهها مرة أخرى . . فسأل : لأن؟

ـ لأنني عرفت أن ما عليك سوى أن ترفع أصابعك لأهرع إليك . . أحسست أنني رخيصة . . ظننت أنني أكرهك ولكنني كنت قد أدمنت على حبك . . وعلقت . . إذ لم أستطع مقاومة مشاعري أو حبك .

ضحك ثم قال برضى :

ـ وهذا ما أريده .

ـ اسمع . . أهذه هي السيارة؟

ـ أجل . . أمستعدة لمواجهتها؟

عاد التورد يغسل وجهها مجدداً، ونظرت بخجل إلى وجهه ووضعت يديها حول وجنتيه . كان حبها وحاجتها إليه باديين على وجهها .

قال : «سيشعر توماس بالراحة» .

ـ وهل عرف؟

ـ قد أكون تقليدياً في بعض الأحيان، وكنت قد طلبت يدك منه حين فتحنا الباب فرأينا ذلك العناق المؤثر .

ضحكت ليندساي : «يا لوالدي العجوز الماكر!» .

وضحك معها . . أمسك يدها والحب والحنان العميق يغلفهما وسيغلفهما إلى الأبد . وخرجا ليستقبلا العائلة .

* * *